

# حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

- نحو عالم المعد - فتح الله نحوي
- ما الموت؟ - أ.د. محمد سعيد رمضان الطوفاني
- كيف نفكر في الصلة بين العلم والدين؟ - أ.د. طه عبد الرحمن
- البناء التربوي لتلميذ القرآن - أ.د. رغول النجار
- روعة الانتساب العبدى - أ.د. فريد الأنصاري
- الحوار والفهم المتبادل في رسائل النور - أ.د. فطمت مصطفى سائر



الأمّة تشق طريقها

عسرت الأمّة أغلالها... وشطّت أقدارها... وتسلّطت مسرعة العاصف داتها الغاصية...  
وتستردّ هويتها الضائعة... ولم تكدّ تخشى العقبات... ولا تهاب ألوانها والمسطحات...  
فبحراوة عزميتها تشقّت جلاييد الإلحاح... وذابت جدران الجحود والكسوف...  
وتحرّرت القلب والإيمان نوارك التحدّيات وعذلت سرايا وهاب...  
ها هي بشري المستقبل الأواعد تلوّج... وأرداساته تنبأ إلى...  
وبوارقه من زوايا الغيب تؤمّن وتوسّل وتشير...!

# المحتويات

٢	نحو عالم الغد / فتح الله محروس .....
٥	ما الموت؟ / أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي .....
٨	من عجائب الرحمة الإلهية: الوَحْم / د. سليم أيدين .....
١٢	البناء التربوي لتلمذة القرآن / أ.د. زغلول النجار .....
١٧	نفخ الروح.. متى تبدأ حياة الإنسان؟ / أولئكُون هَاشُكُون .....
٢١	العالم الإسلامي والغرب: الحوار والفهم المتبادل في رسائل النور / أ.د. قطب مصطفى ساتو .....
٢٥	أنا أذن عبد الله / أ.د. عرفان يلماز .....
٢٩	ابن سينا.. الفيلسوف التجريبي وتحلل النفس الإكلينيكي / أ.د. بركات محمد مراد .....
٣٤	شجاعة السلطان عبد الحميد الثاني / أورخان محمد علي .....
٣٨	كيف نفكر في الصلة بين العلم والدين؟ / أ.د. طه عبد الرحمن .....
٤٢	الأيام الستة الأولى من خلق الكون / أ.د. عثمان حاقماق .....
٤٦	التكرار والتماثل في الفنون الزخرفية الإسلامية / د. حواد محمد مصباحي .....
٥٠	ليلي... / أديب إبراهيم الدباغ .....
٥٢	وا صلواته! / عبد الله ديمرجي .....
٥٤	الطاقة التحويلية من السلب إلى الإيجاب عند الإنسان / أ.د. هارون أوجي .....
٥٧	روعة الانتساب التعيدي / أ.د. فريد الأنصاري .....
٦٣	إليك أشكوه / الأسماء الملا بدر الدين الشاوي .....

# نحو عالم الغد



بسم الله الرحمن الرحيم

## البحث عن جوهر الذات



إلى الذات، فعرضت الأعمال الطيبة ورجاها إلى التزول من الأعماق. هذه الحال تدل على أن عقد الخرز قد انفرط في العالم، وأن دولاب الدول والشعوب يدور خلاف مصالحها.

لذلك، نؤمن بضرورة توجيه العالم الإسلامي جميعاً إلى التجدد بكل أجزائه في فهم الإيمان، وتلقيات الإسلام،<sup>(١)</sup> وممارسة الإحسان، وإثارة العشق والشوق، وتحكيم المنطق، وتعديل طريقة التفكير، وأسلوب التعبير عن النفس، بمؤسساته ونظمه التي تكسيه هذه الأحوال.

لم يبرح العالم الإسلامي في القرون الأخيرة يدور في دائرة مفرغة حائما حول أغلاله من غير أن يجد جوهر ذاته وروحه؛ فكلما تقدم خطوة إلى الأمام، أعقبها بتراجع خطوات إلى الوراء أو انحرافات عن سواء السبيل. بل كثيراً ما خلف هذا السير المشووم أو الانحراف اللعين الذي طغت خطاياه على صوابه وأغرقت أضراسه فوائده، أثاراً غير محمودة على الجهود الذاتية الاجتماعية في تحري سبل العودة



## الفكر الديني

إن أساس حياتنا الروحية قائم على الفكر الديني والتصورات الدينية. ولقد حافظنا على وجودنا حتى اليوم هذا الأساس، وكانت وثباتنا أيضاً منطلقة منه. فإن جردنا أنفسنا منه، فسوف نجد أنفسنا متخلفين ألف سنة إلى الوراء. إن الدين الذي يهدف إلى إضفاء المعنى على الإنسان والكائنات، ويفتح على الروح الإنسانية والذات، وتحقيق الرغبات الممتدة إلى ما وراء الدني، وإشباع حس الأبد في الوجدان... ليس منحصراً على العبادات؛ إنه يحتضن الحياة الفردية والاجتماعية جميعاً... ويتدخل في كل ما هو لنا: عقلي وروحي وقلبي... ويصيح بصيغته كل تصرف لنا حسب نيتنا، ويلونه بلونه.

## البعد الجهادي

نعم، كل تصرف للمؤمن الحق قائم على محور العبادة، وكل جهد له ذو بُعد جهادي، وكل حملة وجهه له متلون بالعقلى والرضا. فلا يحل في حياته للفصل بين الدنيا والعقلى... ولا برزخ بين قلبه وعقله... وعواطفه ومنطقه مزيج واحد متداخل... ولا تتناكر محاكمته العقلية مع إلهاماته. كذا، التجربة والخبرة في عالم فكره. سُلمٌ نوراني يتصل بالعقل، والعلمُ برج عال بحسابات الفراسة. فهو نسر يمتد إلى اللامحايه دوماً بأجنحة العشق العملاقة في هذا السُلم، وحلاجٌ يندف قطن الوجود ندفاً بفطنته في هذا البرج. وحيث لا فراغ في أي زاوية من زوايا هذا الفهم، فلا كلام عن إهمال الإنسان الفردي أو الاجتماعي في هذه المنظومة.

## خرافة الصدام بين العلم والدين

والذين يختلفون صداماً بين الدين وبين العلم والحاكمة العقلية، هم يؤساء جهلوا روح الدين والعقل. أما إلقاء مسؤولية الصراع بين الفئات الاجتماعية المتنوعة على كاهل الدين، فهو انخداع من كل النواحي. لأن الصراع بين التكتلات نابع من الجهل والمنافع الشخصية والمصالح الفئوية. ولن يؤيد الدين أيّاً من هذه المشاعر والأفكار. والواقع أننا قد نشهد صداماً وصراعاً بين قسم من المتدينين أيضاً، إلا أن هذا يرجع إلى أن هؤلاء الحاملين لنفس الجلوة الروحية لم يبلغوا المستوى المطلوب في صدق الإيمان وحفظ الإخلاص... وربما تغلبهم عواطفهم أحياناً... وإلا فالفضيلة المؤمنة لن تفتح المجال للسقوط في أمثال هذه التعاسة. والواقع أن سبيل النجاة الوحيد من السقوط في هذا اليأس هو إحياء الدين بكل مؤسساته وجعلها مصدر حياة وغذاء للمجتمع.

## الانبعاث الجديد

إن المجتمع الإسلامي بحاجة إلى "انبعاث جديد"، وإصلاح جاد في ملكاته العقلية والروحية والفكرية، وباعتبار أكثر حيوية، إلى "إحياء"... إحياء يستجيب لمطلوبات جميع أصناف البشر ويحتضن الحياة كلها، في كل زمان ومكان، بقدر السعة والعالمية التي تتسع لها مرونة النصوص، مع السعي الجاد للحفاظ على أصول الدين.

إن هذا النظام المبارك منذ أن شعرنا بظله فوق رؤوسنا -أدام الله حفظه علينا إلى الأبد- قد فتح باباً مراراً على التجديد والإصلاح، فشهدنا الانبعاث مرات عديدة. فعمامة المذاهب ومعظمها تمثل التجديد في الفقه والحقوق. وأما الطرق الصوفية فقد مهدت المسالك إلى القلب والروح وعبدتها. والكتاتيب والمدارس عموماً -يرم أن كانت لنا- قامت في أغلب نشاطها بإضفاء المعنى على الوجود والكون. وأما التجديد والانبعاث المأمول في الوقت الحاضر، فيتحقق بالتوفيق بين كل ما ذكرناه من المؤسسات وحشدتها جمعاً في مجمع واحد. وهذا يعني النفاذ من الغالب إلى اللب، وترك الشكلية والتوجه إلى الجوهر والروح، في كل مسألة. ويعني أيضاً التوجه إلى اليقين في الإيمان، وإلى الإخلاص في العمل، وإلى الإحسان في الحس والفكر...

## الكمية والنوعية

نعم، ينبغي أن تكون "الكمية" تامة و"النوعية" هدفاً في العبادات، والكلمات وسيلة والروح والصدق أساساً في الدعوات، والسنة مرشدة في التصرفات، والشعور لازماً. وفي كل هذه الغاية والقصد هو الله... فليست الصلاة قياماً وقعوداً... ولن تكون الزكاة مالاً مطروحاً تخرج من المال ثمرة للذمة وتصرف إلى حيث لا يدري أين مصيره... ولئن صار الصيام جوعاً وعطشاً، فماداً يميزه عن الحمية؟ والحج إن لم يجر في فلكه، فما اختلافه عن سياحة بين مدينة وأخرى تدر على بعضهم عملات أجنبية؟ والعبادات إن انحصرت في الكم قد تصير كلعب الأطفال... وصيحات الأدعية الخاوية من الروح شغل الباحث عن عمل الخلق... والحج والعمرة إن صارتا مشقة تُحتمل للتسليي يحمل لقب "الحاج" ومناقب الحج، فسوف يفقدان الحكمة والقصد منهما...

## أطباء الروح

إن سبيل الخلاص من الاضمحلال والهدر في شبك كل هذه



السلبيات، هو إعلان النفي العام لإعداد أطباء الروح والمعنى، الذين يملكون كل الفراغات في كياننا، ويملون نقاط الضعف في نفوسنا، وينقلوننا من عبودية الجسم والبدن ويقودونا إلى مستوى الحياة القلبية والروحية... أطباء تتسع قلوبهم لكل ساحات العلم والذكاء والعرفان والواردات والفيضات... من الفيزياء إلى الميتافيزيقا، ومن الرياضيات إلى الأخلاق، ومن الفنون الجميلة إلى التصوف، ومن الكيمياء إلى الروحانية، ومن الفضائيات إلى الأنفسيّة، ومن الحقوق إلى الفقه، ومن السياسة إلى السير والسلوك. إن هذه الأمة ليست بحاجة إلى هذا وذاك، بل إلى مثل هذا المخ المدير. فكما يرتبط العقل ويخار كل جهة بعيدة وقريبة في البدن عبر الأعصاب، ويرسل الرسائل إلى أقصى نقاطه ويستلم منها، فإن هذا الفريق سيكون في تعاط مع جميع خلايا جسم الأمة وجزئاته وذراته وجُسماته، ويصل إلى جميع الوحدات في المجتمع، ويمتد تأثيره إلى جميع أجزائه الحيوية... ويهمس في أذن كل شرائحه شيئاً من الروح ومن المعنى، مقبلاً من الماضي ومكتسباً عمقا أشد غورا في الحاضر، وممتداً إلى المستقبل.

### فريق الإيمان

هذا الفريق يسع صدره لكل الناس؛ من الطفل الملتزم والمؤدب في المدارس، إلى أبناء الوطن السائين وغير المتضيقين في الأثرة والشوارع. ويُفرغ في كل صدر إلهامات روحه، ويربيهم دهاة مؤهلين بعلوم الغد ومهاراته ويُعدهم لفائدة المجتمع، ويرفع كل إنسان وكل شريحة إلى الكمالات الإنسانية بالتطهر من لوثات العصر في صفاء مآوي النور ومجمّعات إقامة الطلاب وبيوت الطلبة والمدارس والجامعات والمعابد والكنائس...

هذا الفريق يُرسي وحشية الصحف والمجلات والراديو والتلفزيون ووسائل الإعلام القوية، ليجعلها صوتاً ونفساً للدين والملة من وجهة، ويرشد بها من وجهة أخرى الأحاسيس السوداء والأفكار القائمة والأصوات المذلّمة، للوصول إلى سبيل المستوى الإنسانية. هذا الفريق ينقد مؤسسات التربية والتعليم التي تغير شكلها ووجهتها كل يوم حسب الأجواء تحت وطأة الضغوط الخارجية والانحرافات الداحلية... ينقذها من وصاية الأفكار الدخيلة من مراكز القوى العالمية، فينظمها بصورة تستجيب لمطالبات الحاضر وحسب السياق التاريخي، ويرفعها لتكون مؤسسة ذات رسالة وهدف برنامجهما وخطتها وأسلوبها.

بفضل ذلك، ترتقي الأمة من الفقر الحسي والفكري، والحفظ البيعاني والمنطعية إلى التفكير العلمي الحقيقي، ومن تركيبة أنواع الرذائل باسم الفن إلى الفن والجمال الحقيقي، ومن العادة والإيمان المجهول المنشأ والنسب، إلى الشعور الأخلاقي النابع من الدين والتاريخ، ومن التعصب لشئ الأفكار القابعة في صدورنا والتي أضنتنا وأهكتنا، إلى توحيد القبلية في الخلعة الإيمانية والتسليم والشعور والتوكل.

لنضع جانباً بليلة التكوينات الجديدة في العالم، نحن لا نصدق بولادة شيء جديد من الهنّام الرأسمالي القديم، أو أحلام الشيوعية، أو تكسيراها الاشتراكية، أو جهنيتها للديمقراطية الاجتماعية، أو حرق الليبرالية البالية. الحقيقة هي أنه إن كان ثَمَّ عالمٌ مشرّعُ الأبواب لنظام عالمي جديد، فهو عالمنا نحن. وقد يتناوله الجيل القادم على أنه عصر مُحضّنا نحن.

### الولادة الجديدة

هذه الولادة الجديدة، سنُكسب عالمٌ مشاعرنا وأفكارنا، وكذلك مفاهيم فننا وجمالياتنا، أعماقاً مختلفة اختلافاً شاسعاً عما هو عليه الآن. وبذلك سنكتشف أدواقنا البديعة ونصل إلى موسيقانا، ونعثر على رومانسيتنا... ونجعل شعبنا يستقر على أساس متين من كل النواحي، سواء في العلم والفن، أو الفكر والأخلاق، فنضمن مستقبله.

شعارنا في هذا المضمار النفي والإقدام، ومصدر قوتنا الإيمان والحقيقة. لقد أحقق دوماً الذين داروا بنا على الأبواب الأخرى على أمل الشفاء من الأدواء بالانفلات من الإيمان ومن الأخلاق. ولقد نلنا نحن المعالي، وبقينا شرفاء، بفضل الله الذي ارتبطت قلوبنا به، وفي ظل تسليمانا وانتمائنا إلى أمتنا التي رجحناها على كل شيء دنيوي، وبلادنا التي نشأنا في ربوعها وترعرعنا في حضنها. ولا أظن بأنني في حاجة إلى شرح الواقع بعكس الحال! وسنتابع في فصل آخر إن شاء الله ما أضع في الانبعاث من جديد. ■

﴿ الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو.

### الهوامش

(١) المقصود من ظلمات الإسلام أو متغلباته: طبيعة فهمه وشعائياته في الإنسان ونوع الصورات بشأته. (الترجم)





إِنْ رَقِيَ أَيْ أُمَّةٌ وَتَقَدَّمَهَا مَرْتَبُطٌ بِمَدَى التَّرْبِيَةِ الَّتِي يَتَلَقَّاهَا  
أَفْرَادُهَا مِنَ النَّاحِيَةِ الْعَاطِفِيَّةِ وَالْفُكْرِيَّةِ. فَلَا يُنْتَظَرُ تَقَدُّمُ  
أُمَّةٍ لَمْ تَتَّسِعْ أَفَاقَ أَفْرَادِهَا الْفُكْرِيَّةِ وَالْوُجْدَانِيَّةِ.

\*\*\*

## ما الموت؟!

أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي\*

### كل نفس ذائقة الموت!

هذه الجملة من قرار الله في حق عباده؛ تقول لدعاة العلم الحديث وللمتوسمين لغزو الفضاء، ولمن يزعمون اليوم أنهم يتحكمون بخاصية الطبيعة، أن: "اجمعوا أمركم واضفروا جميع إمكاناتكم واحشدوا أقماركم ومراكبكم المشروعة، ثم حشدوا ذلك كله لإزاحة سلطان هذا الموت الذي يهركم واستئلكم، فإن أنتم نجحتم في ذلك كنتم الأقرباء حقًا والمبدعين حقًا".

لَمْ يَتَحَدَّثِ اللَّهُ فِي قُرْآنِهِ النَّاسَ أَنْ يَخْتَرِقُوا حَكْمًا قَضَى عَلَيْهِمْ بِهِ، إِلَّا حَكْمًا وَاحِدًا، هُوَ الْمَوْتُ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ ﴿أَلَيْسَا نَكُونُوا أَبْدَرَكُمْ مَسَكُنًا وَمَلَأْنَاكُمْ فِي بُرُوجٍ مُشْتَبِهَةٍ﴾ (الأنعام: ٧٨)، وَفِي قَوْلِهِ ﴿قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ (الحجرات: ٨). فَأَمَّا فِيمَا وَرَاءَ ذَلِكَ، فَقَدْ تَرَكَ اللَّهُ سَاحَةَ الدُّنْيَا مَسْخَرَةً لِلْإِنْسَانِ خَاضِعَةً لِإِمْكَانَاتِهِ الْعِضْلِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ.



الورقة، أن الإنسان ثنائي التركيب في كل الأحوال، قبل الموت وبعده، أي إنه مؤلف من الجسد والروح السارية في أجزائه. غير أن الروح تكون هي الحبيسة لحساب الجسد، والتابعة له في هذه الحياة الدنيا. فإذا مات الإنسان انطلقت الروح وغدا الجسد هو التابع لها.

فإن ختم للإنسان بما يرضي الله ﷻ من صالح الأعمال، انطلقت روحه مشرقة ومغرّبة، تجوب الآفاق كما تشاء، ولكن تمتد منها إلى الجسد الذي ينوي في تربته ما يشبه أشعة الشمس التي تمتد فتتصل بكل ما تشرق عليه، فهي بعيدة عنه بذاتها ولكنها متصلة به بأشعتها. كذلك الروح، مفصولة عن جسد الميت بذاتها، متصلة به أينما ذهبت بأشعتها.. ويسر من هذا الاتصال يتمتع الجسد بالإحساس، سواء أكان جسداً متماسكاً أم تحول إلى رميم وفُتات!..

وإن ختم للإنسان بخاتمة السوء، انفصلت عنه الروح لتنهوي إلى القرار الذي أعدّه الله لها، والذي فيه من الضيق والآلام ما لا يعلمه إلا الله، وإلاّ من سبق وذاقه، وتمدّد منها -وهي في مقرّها ذاك- إلى الجسد ما يشبه أشعة الشمس، فتكون روحه موصولة به وإن كانت منفصلة عنه. ومن هنا يتعرض الميت جسداً وروحاً لما أعدّه الله له من نعيم القبر أو عذابه.. تنعم الروح، فتسري مشاعر هذا النعيم إلى الجسد وذراته

أينما كان، أو تعذب الروح فتسري مشاعر العذاب إلى الجسد وذراته أينما كان أيضاً.

### ولكن فما الدليل العلمي على هذا الكلام؟

أذكر قبل بيان الدليل بما هو معلوم في منهج البحث العلمي أن الحقيقة المراد معرفتها إن كانت مادّية خاضعة للحس فسهيل معرفتها التجربة والمشاهدة، وإن كانت غير خاضعة للحس كأحداث الماضي السحيق والمستقبل البعيد، وما لا بدخل وجوده تحت سلطان الحواس، فالتطريق إلى معرفتها هو الخير الصادق الذي يصلنا عن طريق التواتر. وقد عرفنا أن جوهر

ولكن هذا التحدي الرباني المتكرر في القرآن، يظل هو المهيم والغلاب.. ويظل الناس الذين يقردون سفينة العلم والمخترعات في عباب هذه الدنيا، محكومين أدلاءً لسلطان هذا التحدي الإلهي.. وإنك لتأمل فتجد أن أحدهم يموت كما تموت أضعف ذبابة في الكون! إنها الحقيقة التي قهر بها الله سكّان هذه الدنيا كلها، منذ فجر الوجود إلى أن تغيب شمسها!..

### ولكن.. فما هو الموت؟

إن من تمة مظاهر القهر الرباني، أن منهج الدراسات الغربية للعلم وحقائقه، جعل حقيقة الموت مجهولة وشاردة عن ساحة هذه الدراسات!.. ذلك لأن "العلم" في المنظور الغربي لا سلطان له إلا في نطاق المادة.. إن "الروح" لا معنى ولا وجود لها في قاموس هذا العلم، ومن ثم فإن البحث في "الروح" غير داخل في شيء من موضوعاته ومسائله.. ولما كان الموت -فيما أخبر عنه القرآن-

انفصال الروح عن الجسد بعد أن كانت سارية في نسيجه وسائر خلاياه، فقد غدا بسبب ذلك ظاهرة مجهولة الحقيقة. وكل ما رصدته الدراسات الغربية من هذه الظاهرة لا يتجاوز عوارضها المرئية الخاضعة لمقاييس المادة، كسكون القلب، وغياب الإحساس، وسكون النبض، وموت ما يسمى بجذع الدماغ.. وواضح أن هذه وأمثالها ليست هي جوهر الموت، وإنما هي من عوارضها وآثارها.

ومن ثم، فقد وفر في ذهن الغربيين أن الموت لا بدّ أن يكون انطفاء لجذوة الوجود، وانتهاء من الحيّ إلى العدم، وقد جاء تعبيرهم: "حكم على فلان بالإعدام" نتيجة لهذا التصور!.. وقد سرت عدوى كلمة "العدم" هذه إلى كثير من مجتمعاتنا العربية والإسلامية، فقد أصبحت كلمة "العدم" تعبيراً عن الموت فيما تولك ألسنة كثير من الناس.

ولكن الموت -كما أخبرنا عنه "خالق الموت والحياة" ﷻ- ليس عدماً، بل هو انتقال الكائن الحيّ من هذه الحياة الدنيا إلى حياة البرزخ.. وتفصيل ذلك بالقدر الذي تسمح به هذه

**الموت -كما أخبرنا عنه "خالق الموت والحياة" ﷻ- ليس عدماً، وإنما هو انتقال من الحياة الدنيوية هذه إلى الحياة البرزخية التي تفصل ما بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة.**

## أنا" ابن الخلود

لتأخذ المقبرة جسدي،

ليأكله التراب،

فجسدي ليس "أنا"...

هو شيء مني،

إنه بذرتي المدفونة.

وأية بذرة لا تغدو ربيعاً،

عندما يأتي الربيع...!

\*\*\*

الموت غير خاضع لشيء من الخواص ووسائلها، وإنما الذي يخضع للخواص ظواهر الموت وأعراضه.. إذن فالخير الصادق المتواتر هو الذي يكشف لنا عن حقيقة الموت. والخير الصادق هنا هو كلام الله الواصل إلينا عن طريق التواتر. وليماننا بالله خالق الموت والحياة ليس محل نقاش هنا.

وقد أكد بيان الله في القرآن، في أكثر من موضع، أن الموت ليس عدماً، وإنما هو انتقال من الحياة الدنيوية هذه إلى الحياة الرزخية التي تفصل ما بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة. يقول الله تعالى عن آل فرعون وحاشم بعد الموت ﴿التَّائِبُ يُغْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ (غافر: ٤٦)، ويقول عن مصيرهم يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (غافر: ٤٦)، ويقول عن الذين ظلموا أنفسهم في دار الدنيا بالجحود والاستكبار على الله ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (١) ﴿الْيَوْمَ تُعْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (الأنعام: ٩٣). ويقول عن نموذج من الناس الذين أيقنوا بوجود الله وخضعوا لسلطانه ودانوا بذل العبودية له، وهم الشهداء ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩).

وبعد، فإن المنكر لوجود الله خالقاً لكل شيء، لا يقيم لهذا الدليل وزناً، ولا يرى بينه وبين العلم أي نسب.. والموقف بوجود الله ولكن مع إنكاره لمسا هو ثابت من أن القرآن كلام الله، هو الآخر قد لا يقيم وزناً لهذا الدليل.

ولكن من علم وجود الصانع ﷻ، وأيقن أن القرآن كلامه، علم أن ما قلته هو القرار العلمي الذي لا يلحقه ريب. ونحن موقنون بوجود الصانع خالق الموت والحياة، وموقنون بأن القرآن كلام الله ﷻ. إذن فحديث القرآن عن الموت وحقيقته، كشف عن واقعه وذاته. وليس ثمة من هو أعلم بالجهاز المصنوع من صانعه. ■

(١) كلية الشريعة، جامعة دمشق / سوريا.

افواض

(٢) أي يقولون للظالمين أخرجوا أرواحكم.

(٣) المراد باليوم ما بعد الموت مباشرة.





## من عجائب الرحمة الإلهية: الوحم

د. سليم أيدين\*

هـ

(ما بين ٧ و ١٢ أسبوعاً من الحمل). وتختلف الموشرات الطبية حسب شدة الغثيان والقيء باختلاف البنية الجسدية، وترتبط كذلك بنوعية الأغذية المتناولة. وتنقطع الشكوى من الغثيان والقيء عند أغلب النساء مع بداية الشهر الرابع للحمل، وتستمر لدى القليل منهن خلال الشهرين الخامس والسادس. وكشفت الأبحاث في الآونة الأخيرة أنّ هذه الظاهرة تخفي خلفها رحمة عظيمة مُستترة من لدن الخالق سبحانه، فهي ظاهرة زائفة بالحكم. أجل، إنّ الوحم ليس قلقاً أو مرضاً، بل هو درع فيزيولوجي يحمي الطفل.

إن الأبحاث التي أثبتت أنّ الوحم في مسره العادي مفيد للأم من جهة وللجنين في مرحلة نموه من جهة أخرى، لقيت استغراباً في الوهلة الأولى؛ فقد كان الرأي السائد -إلى يومنا هذا- يتمثل في ضرورة إجراء معالجة طبية إذا ما أدّى الوحم إلى قيء مكثف

هذا الأمر معروف لدى كثير من الناس، ومعروف عند الأمهات اللواتي يتحمّلن المشقات بسببه، ومعروف لدى الآباء لأنهم يشهدون على ذلك. والذين لا يعلمون حقيقة المسألة، يوجهون التّهم إلى زوجاتهم قائلين: "ومن يدري ماذا أكلت؟"، أو يتحدث النساء فيما بينهن: "إنّ فترة حملي مزعجة للغاية"، وذلك للتعبير عن عدم رغبتهن في الإنجاب مرة أخرى. بينما تروي بعضهن كيف أهنّ أتعن من حوّهن عندما اشتتهن أكل الطّبخ في فصل الشّتاء أو أكل البرتقال في فصل الصّيف.

### نعمة الوحم

تُعرف علامات الحمل في مظاهر الغثيان والقيء والاشتهاء المفرط لبعض أنواع الأغذية أو النفور من أنواع أخرى باسم "الْوَحْم" أو "مرض الصّبح". وغالباً ما يظهر الوحم في الأشهر الثلاثة الأولى



مما ينجر عنه فقدان في توازن السوائل في الجسم بسبب حدوث نقص في كمية الأملاح والفيتامينات. ويطلق على هذا النوع من القيء والغثيان الشديدين في لغة الطب اسم "hyperemesis gravidarum".

### ما هي أسباب الوحم؟

لا تُعرف الأسباب الحقيقية للوحم، لكن من المعروف أنّ التغيرات الهرمونية واختلاف سكر الدم في فترة الحمل يلعب دوراً مهماً في ذلك، ومادة الأستروجان التي تسجل زيادة في بدايات الحمل والتي تفرز من المشيمة (وهي طريق التواصل بين الأم والطفل) ترهف حاسة الشمّ وتجعلها كثيرة التأثر بما تشمه. لذا تزداد حاسة الشم قوة لدى النساء الحوامل اللاتي لديهن كمية أكبر من مادة الأستروجان في الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل. كما أنّ الأستروجان وهرمونات البروجسترون (pro-gestron) من شأنها زيادة الحساسية لـ "المنطقة المنشطة" لـ "كموراسبتورات" الواقعة في الدماغ، ويؤدي هذا الأمر إلى الكشف عن التوكسينات (السّموم) الموجودة في الدم بكمية قليلة جداً. وعندما تكتشف هذه المنطقة في الدماغ وجود السّموم الموجودة في الدم تتحرك أحاسيس الغثيان والقيء على الفور. كما أنّ هناك تقارير أثبتت أنّ البكتيريا المسماة بـ "helicobacter pylori" تلعب دوراً مهماً في وقوع إثارتهما بشكل مكثّف.

وإذا اعتبرنا كلّاً من الغثيان والقيء نظاماً دفاعياً للبنية الجسدية ضد الأجسام الغريبة، فإنّ العلامات الطّبيّة للوحم من الغثيان والقيء تصبح موضع نقاش حول ما إذا كانت مرضاً أم لا. والتغيرات في الأستروجان والبروجسترون وسائر الهرمونات، ليست سوى ردود أفعال نزيهة هرمونية يقوم بها الجسم في إطار النظام الدفاعي. وقد أثبتت الأبحاث الأخيرة التي أجريت على النساء الحوامل من اللواتي عشن الوحم والقيء، لم يعيشن، أنّ الهرمونات المتزايدة ليست عاملاً في حدوث الوحم، كما لا نجد أيّ دليل يوحى بأنّ محاولة تذليل شكاوى النساء حول الشعور بالاشمئزاز والغثيان نحو أغذية معينة سوف ينفع الجنين والحمل. بل على العكس من ذلك، فإنّ الأبحاث الأخيرة أثبتت أنّ هذا الوضع ليس مرضيّاً، وإنما هو نظام دفاعيّ ذو فوائد مهمة للجنين الذي ينمو في رحم الأم.

### حكمة الوحم

وكان "مارجي بروف" من جامعة كاليفورنيا - باركلي (The

University of California at Berkeley-Margie Profet) أول من لفت النّظر إلى هذا الموضوع في عام ١٩٥٥م. رأى هذا الباحث أنّ الوحم يمثل آليّة رحمة إلهية هدفها حماية الجنين الذي ينشأ داخل جسم الإنسان بشكلٍ معجز، وأنّه يحمي الجنين من السّموم الطّبيعية في الأغذية. وحسب الإثباتات والاكتشافات فإنّ المرأة التي تتجنب بدافع الوحم تناول بعض الأغذية في فترات حساسة خلال الحمل تتمتع بحظّ عالٍ لإنجاب مولود سليم.

وتتمثّل حالات الإعاقة عند الإنجاب مكانة هامة في يومنا أيضاً، حيث نجد في أمريكا الشمالية أنّ نسبة تتراوح بين ٢٪ إلى ٣٪ من حالات الإنجاب السنوي تدخل في إطار الإعاقة عند الإنجاب. ورغم اكتشاف الأسباب الجينية لبعض هذه الإعاقات التي تقع عند الإنجاب والتي تتكوّن خلال فترة الحمل، إلّا أنّ أسباب ثلثها غير معروفة. وحسب رأي "بروف" فإنّ السّبب في ذلك هو تناول الأغذية بشكل عشوائي خلال الحمل، وكذلك الغذاء غير المنتظم لدى النساء غير الواحات.

وأثبت الباحث بجامعة كورنال "باول شارمان" (Paul Sherman) وزملاؤه عام ٢٠٠٠م بأدلة مقنعة أنّ للوحم حكماً هامة لدى ٨٠٪ من النساء الحوامل.

أقر شارمان وفريقه أنّ الحكمة من وراء الحساسية المفرطة للجسم البيولوجي نحو أغذية معينة هو حماية الأمّ والجنين معاً من السّموم الطّبيعية المحتمل وجودها في الأغذية، وكذلك من الموثاجينات (المواد المضرة التي تسبب في طفرات وراثية). والشعور بالغثيان والقيء (الوحم) في بدايات الحمل يمنع الأمّ من تناول الخضر والأغذية المحتمل احتواؤها على مخاطر السّموم. وهكذا يظلّ الطفل البريء في ظلّ الرحمة والعناية عند نموّه، وهو نفس ما يحدث بتوجيه إلهي لكثير من الحيوانات المحرومة من العقل والعلم عندما تبحث عن أغذية معينة.

وثبت أنّ احتمال إسقاط الجنين لدى النساء اللواتي يعشن الوحم المعتاد بالقيء والغثيان ضعيف جداً، في حين تظلّ مخاطر إسقاط الجنين وإنجاب طفل معاق لدى النساء اللواتي لا يعشن الوحم نسبة مرتفعة. وقام "فلاكسمان" و"شرمان" بتحليل نتائج ٥٦ بحثاً أجريت على ٧٩,٠٠٠ امرأة حاملاً من ١٦ دولة للتوصل إلى هذه الاستنتاجات. وكانت نسبة ٦٥٪ من النساء الحوامل يشعرن بالشمئزاز وهرج وغثيان ضدّ نوع واحد من الأغذية على الأقل، و١٦٪ من النساء الواحات يشعرن

بامتياز ضدَّ المُسرَّوبات الكافاينية (الكافاين هي المادَّة المنبِّهة في البنِّ)، و٨٪ منهنَّ ضدَّ الأزهار وحضر معبَّدة مثل القرنبيط والكرنب، و٤٪ منهنَّ ضدَّ الأغذية الحارة والأغذية التي تحتوي على توابل.

والعجيب في كلِّ هذا هو احتواء جميع هذه الحضر والأغذية ذات التوابل على سموم طبيعية، وتعدَّ السَّموم الطَّبيعية في النباتات وجها آخر للرحمة والشفقة، حيث تحميها من الحشرات والبكتيريا المضرة والمؤدية إلى الأمراض. لكن هذه الحضر تحمل في طياتها مخاطر تتمثل في إلحاق الضرر بالجنين الذي لا يملك أيُّ نظام دفاعيٍّ في مرحلة نموه، ويدعم الشَّعورُ بالغثيان والامتزاز المتكون في جسم الأمَّ منعُ تسرُّب هذه الأغذية إلى الجسم ممَّا يساعد على غموس الطفل

بشكل صحي، و٢٨٪ من الحوامل الواحات يشعرون بامتزاز وغثيان ضدَّ الأغذية الحيوانية. وقد قارن الباحثون في "جامعة كورنال" بين السَّحلات والاكتشافات المتعلقة بالروح في ٢٧ مجتمعاً مختلفاً لتأييد إثباتاتهم. ووجدوا ظاهرة الروح في ٧ مجتمعات من بين ٢٧ مجتمعاً، ولم تكن تظهر كمشكلة طيبة سريرية، لأنَّ أهلها تعودوا على استهلاك الدَّرة والأرز والبطاطا فضلاً عن اللحم، بينما عمَّت

الشكاوى الطَّبية السَّريية المتعلقة بالروح في ٢٠ مجتمعاً منها. وكان السبب في ذلك يرجع أساساً إلى استهلاك الأغذية الحيوانية واللحوم غالباً في المأكولات التقليدية لهذه المجتمعات.

وعما أن غذاء الجنين يأتي من الروتينات الموجودة في اللحم لدى النساء الحوامل اللواتي يستهلكن اللحم، فإنه من المحتمل أن تُلحق الكائنات الطَّفيلية والبكتيريا المنسَّبة في الأمراض داخل اللحوم أضراراً بالجنين، لذا يجب منع هذه الأغذية من التسرب إلى جسم الجنين، الأمر الذي يكونُ شعوراً بامتزاز وغثيان ضدَّ الأغذية المضرة، وذلك بوقوع زيادة في قدرة السَّم والطعم بمئات الأضعاف.

رغم أن الشَّعور بالامتزاز والغثيان حالة عرضية وحدث مؤقت لدى كثير من النساء، فإنه مع ذلك يحمل أهمية كبيرة بالنسبة إلى مرحلة الحمل. وتعدُّ فترة تزايد الشكاوى حُرَّاء الرحم أخطر فترة خلال الحمل، حيث تزداد حساسية الجنين ضد المواد الكيميائية خلال الأشهر الثلاثة الأولى للحمل نظراً لتكون الأعضاء فيه.

ويتم الضغط في هذه الفترة على نظام المناعة للأم كي لا يرفض الجنين، وذلك عبر إحداث تغيير حيويٍّ وإعجازيٍّ، وبذلك يلتصق الجنين بجدران الرَّحم التصاقاً شبيهاً بانتشار جذور الشَّجرة في التراب. ولئن كان هذا الضَّغط أمراً إيجابياً للطفل، إلا أنه قد يكون سلبياً للأمَّ التي تصبح - في هذه الحالة - عُرضةً للجراثيم المسببة للأمراض. ولذلك يتحوَّل جهاز الانقِاط في دماغ الأمَّ إلى وضع حساس جداً، كي لا تقبل الأمَّ الحامل الأغذية الفاسدة والمحتوية على البكتيريا في الفترة التي يقع فيها الضغط على نظام المناعة.



## سموم الأغذية وخطورتها

### على الجنين

والشَّعور بالنفور والغثيان من رائحة القهوة مؤشِّر مهم على الحمل، لأن القهوة تحتوي على ما يزيد على ألف نوع من السَّموم، ومنها الكافيين. كما تحتوي أنواع الشاي النباتي على التوكسينات الطَّبيعية مثلما هو الأمر بالنسبة إلى التوابل. ويحتوي الجزر الغنسى من حيث الفيتامينات على مادة كيميائية تعرف باسم "بسورالين" (psoralin)، ويحتوي الفطر على "هيدرازين" (hydrazine) ونبات الرِّيحان على مادة سامَّة تسمى "إسترغول" (estragal) وهي تؤدي إلى تغيُّرات وراثية. ويحتوي الكرنب الأحمر والزُّهور والكرنب الأبيض على مادة مسيِّية للتحوُّلات وتعرف باسم "I-isothiocyanate". وتحتوي قشور البطاطا والبطاطم على مادة "السولانين" (solanin).

## خطورة البكتريا على الحوامل

والأغذية التي لا تشتهيها النساء الحوامل ويشعرن ضدها باشمئزاز أكثر خلال فترة الحمل هي اللحم والسمك والدجاج والبيض بالدرجة الأولى، لأن هناك احتمالا كبيراً أن تحتوي هذه الأغذية على البكتيريا والكائنات الطفيلية (إذا استثنينا حالات الصيانة الصحية الحديثة والتغليف الغذائي الجيد). ومثلاً نرى في بدايات فساد الأغذية أنها تحمل طفيليات تكسويها بآثارها بارازيتية وهي طفيليات وحيدة الخلية وتنقل إلى الإنسان من القطط. وإذا تناولتها الأم مع الأغذية في بدايات الحمل فإن ذلك يؤدي إلى إصابتها بالعدوى وإلى إسقاط جنينها. ومن هذه الناحية نرى أن الرحم الذي يظهر في الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل هو نظام دفاعي فطري يحمي الطفل من هذه الأخطار كلها. وقد أصبح الكثير من الأطباء يقرّون اليوم أنه من الخطأ تسمية الرحم الذي يسمى بالإنجليزية "morning sickness" (بمعنى "مرض الصباح") مرضاً، لأنّ الرحم ليس مرضاً، وإنما هو واقع تناغم فيزيولوجي تتجلى فيه الرحمة والعناية نحو الطفل بكل وضوح. وهذا يعني أنه لا حاجة لتناول النساء الحوامل أدوية ضدّ الغثيان.

## الرحم نعمة إلهية

ونحن نشعر اليوم بحزن شديد إزاء هؤلاء النساء اللواتي اعتبرن هذا الوضع مرضاً في الماضي وتناولن أدوية مختلفة مما أدى إلى إنباب أطفال معاقين. وبالنسبة لهذه الأبحاث كانت أجريت قبل هذا الوقت ليكتشف أنّ الرحم كان نعمة إلهية. ويتضح أنه من أجل ذلك، ينبغي تغيير نظرتنا إلى الكون والإنسان في كل شيء.

وخلاصة القول، في ضوء المعلومات المذكورة سابقاً يجب عدم اعتبار الرحم الذي يظهر في الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل مرضاً، بل ينبغي اعتباره مؤشراً لاستمرار الحمل بشكل طبيعي، حيث يتضح من ذلك أن التغييرات النفسية والفيزيولوجية مع بداية حمل المرأة هي مظهر لتجلي رحمة الخالق العليّ وشفقته إزاء الجنين والأم معاً. وتزول شكاوى الرحم في الغالب بعد الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل لانقضاء فترة الخطر حيث تخفّض الضغوط على منظومة المناعة في جسم المرأة ويكتمل نمو أغلبية أعضاء الجنين، وبذلك تعود الأم إلى تناول الأغذية على النحو المعتاد. ■

وتفرز هذه النباتات كلّ تلك المواد السامة المذكورة من أجل حماية نفسها من الأعداء. وعلى سبيل المثال، ترتفع نسبة الإعاقة لدى جدي الماعز إذا استهلك الماعز الحامل نباتاً عشبيّاً يعرف باسم "Lupinus sp" أو "الفرول المر" الغنيّ بالسموم الطبيعية بكمية كبيرة.

وبفضل الأثريمات المغيرة لتركيبية السموم الموجودة في الكبد، فإنّ جسم الإنسان يستطيع أن يجابه التأثيرات السلبية لهذه الخضار والفواكه عند استهلاكها، بينما تمثل هذه الأثريمات خطراً جاداً على الجنين النامي في رحم الأم، لأن الجنين لم يحصل بعد على الآلية الفيزيولوجية والأنظمة المضادة لتلك السموم الطبيعية في الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل، فلا مفرّ إذن من أن تلحق هذه الأغذية التي تحتوي على السموم الطبيعية والتي تستهلكها الأم أضراراً بالجنين. ويمكن الحلّ إذن في ضرورة عدم تناول الأم لهذه الأنواع من الأغذية، ومن هنا يتحوّل جهازا التدوق والشّم لدى الأم إلى وضع حساس جداً.

وبما أن المواد المؤثرة داخل التوابل مضادة للجراثيم والطفيليات فإنّ استعمالها في الأطعمة مفيد للكبار وغير الحوامل من النساء من حيث الوقاية، خاصّة. واستهلاك الناس المقعّمين في أقاليم ساخنة ذات مأكولات حارة وغنية بالتوابل قرار صائب، لأنّ التوابل الحارة تقلل من مخاطر فساد اللحوم مبكراً، وبالتالي تقلّل من خطر الكائنات المسببة للأمراض بسبب الحرارة. وتقوم التوابل الحارة داخل الأطعمة بلور تطهيري ضد الجراثيم.

غير أنّ هذا الوضع المفيد للناس العاديين يشكل خطراً هاماً على الحوامل، لأنّ أغلبية التوابل تحتوي على سموم طبيعية إلى جانب مواد مضادة للجراثيم، ومن المحتمل جداً أن تلحق هذه السموم الطبيعية التي تميّز بخاصية "التحول الوراثي" ضرراً بالبرنامج الجيني للجنين الذي يسجّل نمواً عبر انقسام سريع في الخلايا. وتشعر المرأة الحامل باشمئزاز وغثيان ضدّ الأطعمة ذات التوابل، وبذلك يجتني الطفل من أخطار التوابل المتوقعة، بينما تتبدّد أضرار هذه السموم لدى الكبار وغير الحوامل من قبل الأثريمات المضادة للسموم والتي توجد في السيتوكرومات الموجودة في الكبد. كما أنّ عدم امتلاك غير الحوامل عصراً مثل الجنين الذي يكبر بسرعة كبيرة، ويكون حساساً إزاء مؤثرات التحول الوراثي (الموتاجينية) يعتبر آلية وقاية إضافية.

(٤) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: مصطفى سبين.

# البناء التربوي لتلميذ القرآن

أ.د. زغلول النجار

بعمارها وإقامة عدل الله ﷻ فيها، وهذا لا يمكن أن يتم بغیر علم والتزام. ومن هنا كان طلب العلم فريضة على كل مسلم.

## ٢- الإنسان كيان روحي

الإنسان جزء من هذا الكون المادي، ولكنه يختلف عن الكون المادي بأنه -بالإضافة إلى جسده المادي- هو كيان روحي عاقل، قادر على التفكير وعلى إدراك ما يفكر فيه، وعلى التعبير عن تفكيره ومشاعره ببيان واضح.

والإنسان يمس في نفسه معاني وقيماً للأشياء والأفعال تجعله يستطيع إدراك ذاته، وتمسيد تلك الذات تجسداً يجعلها متميزة على كل ما سواها من الكائنات الحية الأخرى، رغم ما بينه وبينها من شبه في البناء؛ فهو أعلى المخلوقات مرتبة، وآخرها وجوداً، وعلى ذلك فهو جامع لكل صفاتها، ومتميز

إن استكمال البناء التربوي للمسلم بصفة عامة ولحامل القرآن الكريم بصفة خاصة يقوم على التصور الإسلامي الصحيح للإنسان والكون والحياة ولمعنى ألوهية الله ﷻ. ويمكن إنجاز ذلك في النقاط التالية:

## ١- الاستخلاف في الأرض

إن الإنسان هو عبد من عباد الله تعالى خلقه من طين، ونفخ فيه من روحه، وعلمه من علمه، وأمر الملائكة بالسجود له، وكرمه واستخلفه في أرضه، وفضله على كثير من خلق تفضيلاً. وعلى ذلك فإن القدرة على التعلم واكتساب المعرفة هي صفة أساسية من صفات الإنسان، وضرورة من ضرورات وجوده؛ فهي التي تعينه على فهم رسالته في هذه الحياة، وهي رسالة ذات شقين: عبادة الله تعالى بما أمر، والقيام بواجبات الاستخلاف في الأرض



تعالى هي إهدار لكرامة الإنسان، وإذلال لإنسانيته، وهي صورة من صور الشرك الذي حرّمه الله تعالى وجعله المصطفى ﷺ من الكباثر، ومن السبع الموبقات المهلكات.

فمن الخير الفطري في الإنسان بصفة عامة وفي حامل القرآن بصفة خاصة تلك القيم الكبرى التي فطر الله ﷻ الإنسان عليها، ومنها حب الحق، وحب الخير، وتلوق الجمال الحسي والمعنوي، وهذه في المخلوقات انعكاس لعظمة القدرة المبدعة، ودلالة على الخالق العظيم الذي هو الحق والخير، وهو مسبق كل صور الجمال على الإطلاق. فالله تعالى هو مصدر كل القيم العليا، وهو سبحانه غايتها.

وواجب التربية الإسلامية أن تحافظ على الفطرة الإنسانية السليمة، وأن تعمل على تنميتها وتزكيها باستمرار خاصة مع حامل القرآن الكريم؛ فالنعمان يدون تربية وتزكية تعليم ناقص، فهذا هو سيدنا إبراهيم أبو الأنبياء وولده إسماعيل عليهما السلام يدعوان الله لذريتهما من بعدهما فيقولان: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٩).

### ٥- التربية الإسلامية والمجتمع الإنساني

إن الإنسان الفرد هو عضو في جماعة تظل تتسع حتى تشمل الإنسانية كلها بما فيها أسرته وأهله، ومجتمعه وبلده وأمنته والعالم بأسره. فهو مرتبط بهذه الجماعات كلها بارتباطات شتى، وله عندها حقوق، كما أن عليه تجاهها واجبات، ولا تستقيم الحياة في هذه الدنيا إلا بقيام اثنان دقيق بين حقوق الفرد وواجباته تجاه الجماعة، وهو أمر من صميم العملية التربوية، ومن صميم الإسلام. وهو من الأمور التي لا يكتفى فيها بالتلقين، وإنما لا بد لها من أن تغرس في النفوس بالممارسة الفعلية واتباع القدوة الحسنة، والتمام أوامر الله واجتباب نواهيه، والوقوف عند حدوده التي وضعها لعلاقات الأفراد بعضهم ببعض، وعلاقات كل منهم بالمجتمع الإنساني كله وعلى اختلاف أبعاده، خاصة إذا كان المرء من حملة القرآن الكريم.

والتربية الإسلامية في ذلك لا يمكن أن تكون عملية إقليمية ضيقة، تحدها حدود الأرض، أو فواصل اللغة، أو اختلاف اللون وتنوع الجنس؛ فهي تسعى إلى بناء الإنسان الصالح لتبني به المجتمع الإنساني الصالح، وهو مجتمع لا بد أن يكون مجتمعاً متعلماً ومتبصراً، يستشعر الفرد فيه معنى الأخوة الإنسانية، ويعتبر به،

عليها بالقدرة والاختيار والتكريم، فهو الكائن الحي العاقل القادر المختار المكلف الذي وصفه خالفه سبحانه وتعالى بقوله العزيز: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء: ٧٠).

على ذلك فالإنسانية في الإنسان ليست بجسده المادي المقعد، ولا بصفاته التشريعية الخاصة، إنما الإنسانية فيه هي القدرة التي وهبها له خالفه ﷻ على الارتقاء بنفسه إلى الدرجة التي توهمه لاحتمال تبعات التكليف، وأمانة المسؤولية - خاصة إذا كان من حملة كتاب الله - حتى يصل إلى المقام الخاص به، وهو الاجتهاد في تحقيق الكمال الاختياري الواعي بإرادته وعزمته وصبره، وبهداية كتاب ربه. وهذا لا يمكن الوصول إليه بغير تربية وبغير علم وفهم وهداية وأخلاق والتمزام، وبغير مجاهدة للنفس.

وعلى ذلك فالتربية في الإسلام تربية شاملة لكل مكونات الإنسان، وقدراته ومواهبه، وهي ليست عملية محددة بزمان ومكان. وإذا لم يتلق الإنسان قدرًا كافيًا من التربية فإنه قد يستحلم هذه الإرادة الحرة في الخروج عن منهج الله، والإفساد في الأرض.

### ٣- أصالة الخير في الإنسان

إن الخير أسيل في الإنسان، والشر طارئ عليه، وقد وهب الله الإنسان القدرة على التمييز بينهما، والإنسان يولد على الفطرة التي يزكّيها حمل كتاب الله، وإحياء سنة رسوله ﷺ. قال تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٣٠). ثم تتفاعل قابليات الإنسان وميوله وقدراته مع المجتمع الذي يربّي فيه، فتتمو في الاتجاه الصحيح أو الخاطئ حسب ما يتلقى من توجيه، ومن هنا تتضح أهمية التربية الصالحة، ودورها في توجيه العقل لاستخدام قدراته كلها في الخير وليس في الشر، وهذا هو دور أساسي من أدوار التربية الإسلامية خاصة مع حاملي القرآن الكريم.

### ٤- فطرية القيم عند الإنسان

إن قسمة الخير في الإنسان، ووسيلته إلى إثمائه هي خضوعه بالعبودية لله وحده، لأنه إذا لم يخضع بالعبودية لله كان جباراً عاتياً في الأرض، يستحلم كل نعمة وبهيا إياه الله في الاستعلاء والتجبر والإفساد في الأرض، أو يكون عبداً لغير الله، وهذه صورة من صور الإذلال الإنساني الذي يتنافى مع تكريم الله ﷻ لبني آدم؛ ومن أجل تبريد الله تعالى من حامل كتابه؟!

ومن سمات التوحيد الخالص لله الخالق ﷻ أن يؤمن الإنسان بأنه لا سلطان في هذا الوجود لغير الله، ومن ثم فالعبودية لغيره

ويصونه ويحافظ عليه. وعلى ذلك فالمساواة في التعليم الإسلامي بين عناصر الجنس البشري كلها أمر واجب لا فرق في ذلك بين أبيض وأسود، ولا بين ذكر وأنثى، فكلهم مطالبون بعبادة الله وتقواه، ولا عبادة بغير علم وهدي والنظام.

## ٦- الاهتمام باختلاف الملكات عند الأفراد

إن الأفراد متفاوتون في قدراتهم وملكاتهم ومواهبهم، وإن كان ذلك بمثابة ابتلاء واختبار إلا أن هذا التفاوت بين الأفراد لا بد وأن يؤخذ بعين الاعتبار في العملية التربوية، فلا يكلف إنسان فوق طاقته. ومن ثم فالتربية في الإسلام تربية فردية، لا تُحد في قوالب موحدة جامدة تفقد لها طبيعتها الإنسانية، بل تتركها لحسن تقدير المربي وقدرته على توجيه الملكات الخاصة لكل طالب، وعلى حسن قبول الطالب لتوجيه مربيه لما يربطهما من صلة نورانية أساسها خشية الله تعالى والعمل على مرضاته، وما أحمل ذلك في حلقات تعلم كتاب الله!

## ٧- تكامل المعرفة التربوية

إن مصادر المعرفة الإنسانية في الإسلام هي الوحي السماوي المنزّل، والمعارف والتقنيات المكتسبة، والتراث البشري الموروث في هذين المجالين. وعليه فإن التربية الإسلامية لا بد أن تستمد منهجها ومحتواها من كل من وحي السماء وميراث المعارف والتقنيات المكتسبة، فإهمال أي منهما لا يمكن أن يؤدي إلى معرفة متكاملة نافعة أو إلى تربية سليمة، ومن هنا كانت ضرورة إلمام حافظ القرآن الكريم بالمعطيات الكلية للعلوم حتى لا ينزعز عن عصره.

## ٨- الوحي الإلهي وآثاره التربوية

إن وسيلة الإنسان إلى العلم السماوي هي وحي السماء المنزّل على عدد من الرسل والأنبياء، والذي تجسّع واكتمل وحفظ في الرسالة الخاتمة المتمثلة في القرآن الكريم وفي سنة الرسول الخاتم ﷺ. وقد تعهد ربنا تبارك وتعالى بحفظهما، فحفظاً كاملاً في نفس لغة الوحي هما (اللغة العربية) على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد تعالى بهذا الحفظ تعهداً مطلقاً حتى يبقيا حجة على الناس كافة إلى قيام الساعة، وهنا ينضج فضل حامل القرآن الكريم. وعلى ذلك فإنّ الإنسان برسالة السماء هو ضرورة من ضرورات علمه، بل من ضرورات وجوده؛

أ- فهو من ضرورات علمه لأن العلم الذي لا يستطيع أن يجيب على تساؤلات أساسية في حياة الإنسان -مثل من هو؟ من الذي

خلقه وأرسله إلى هذه الحياة؟ وما هي رسالته فيها؟ وكيف يمكن له أن يحقق تلك الرسالة على الوجه الأمثل؟ وما مصيره بعد هذه الحياة؟- هو علم ناقص حتى ولو وصل بالإنسان على القمر، وجاب به في الفضاء، وفُجّر له أسرار الذرة، وسُخّر له مختلف طاقاتها.

ب- والإيمان بوحى السماء هو من ضرورات وجود الإنسان لأنه لا يستطيع أن يضع لنفسه نظاماً شاملاً كاملاً ينظم حياته وعلاقاته أفراداً وجماعات، ودولاً وأُمماً، ويحتسماً إنسانياً واحداً على أساس من الحق والعدل، دون ميل شخصي، أو هوى نفسي مهما أوفى الإنسان من أسباب الذكاء والفطنة؛ وذلك لأن الإنسان لا يستطيع أن يحدد تفاصيل رسالته في هذه الحياة، ولا أن يدرك مصيره من بعدها بعقله منفرداً. ومن هنا كانت ضرورة رسالة السماء ليهتدي بهديها الإنسان في القضايا التي لا يستطيع أن يصل فيها بمجهده إلى أية تصورات صحيحة. ولذلك بعث الله الرسل والأنبياء بدينه الحق، وطالب الناس بالإيمان بهذا الدين الحق وإقامة حكم الله في الأرض على أساس منه.

وآخر الرسالات السماوية هي رسالة سيدنا محمد ﷺ الذي جعله الله تعالى خاتم الأنبياء والمرسلين، وجعل أعظم معجزاته القرآن الكريم، وتعهد بحفظه فيكي سليماً من الضياع ومن التحريف والتبديل. ومن هنا فإن التربية في الإسلام تقوم على أساس من القرآن وهديه، وتعليم رسولنا الكريم وسنته، وربط ذلك بواقع الأمة في كل زمان ومكان، ومن أجل ذلك كان حامل القرآن! وعلى ذلك فإن اهتمام السلف الصالح من المسلمين بتحفيظ أبنائهم وبناءهم القرآن الكريم في سن مبكرة كان عملاً أساسياً في تربيتهم، به تكونت عقيدتهم وأخلاقهم، وانضبط سلوكهم ومعاملاتهم، وعمّق إيمانهم وصلاتهم بخالقهم، وزاد فهمهم لرسالتهم، وسادوا الدنيا بهذا الفهم وملأوها علماً وعدلاً ورحمة وإنسانية، وبه تمكّنوا من لغتهم، وحفظوا رسالة ربهم، ولا يزال ذلك هو الأسلوب الأمثل في تربية المسلم على الرغم من الاعتراضات التي وُجّهت -ولا تزال توجه من أعداء الإسلام وأبواقهم- إلى ذلك النهج في تربية الصغار؛ وذلك لأن حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة تتميز فيها الذاكرة بصفتها هي عملية سهلة مسيرة. والقرآن -بالإضافة إلى كونه ذخيرة علمية ودينية ولغوية وتربوية وأخلاقية وسلوكية- هامة لحامله حتى ولو لم يع ذلك وعياً كاملاً في سن مبكرة، فإنه ينمو -بالقطع- مع نموه العقلي والجسدي، ويبقى ذخيرة له في دنياه كما هو ذخيرة له في آخرته. فالتربويون اليوم يجمعون على أن للمفردات



والتراكيب الجملية التي يحمفظها الطفل في صغره صلة كبرى بنمو الطفل العقلي والفكري، والأخلاقي والسلوكي بنمو قدراته على البيان. وهل هناك أبلى من بيان الله في القرآن الكريم؟! على البيان.

## ٩- العلم والحكمة في الممارسة التربوية

إن العلوم الكونية في منهج التربية الإسلامية شيء أساسي، ولكن العلم بما ليس علماً مادياً مجرداً عن الحكمة، فتعرف الإنسان على الكون ضرورة من ضرورات وجوده؛ لأنه بذلك يعرف على الظواهر الطبيعية والسنن التي تحكمها، ويضع الفروض والنظريات اللازمة لذلك، ويستنتج القوانين للمطرود منها. وتناج ذلك تعرف الإنسان على مصادر الخير المادي في هذه الحياة، فيستفيد بما وينميها بسد حاجاته وحاجات بني جنسه، وتعرفه على شيء من قوانين الكون وسننه مما يعينه على تسخيرها في عمران الحياة على الأرض والقيام بواجبات الاستخلاف فيها، وهذا مجال العلوم البحتة والتطبيقية أو ما يسمى بالعلوم الكونية، والتي يجب على حامل القرآن الكريم أن يلم بشيء من المعطيات الكلية لها. وهذه العلوم في التربية الإسلامية ليست فقط حقائق وأرقاماً، ومعادلات مجردة من الحكمة، فإن دلالتها المعنوية أكبر منها. ومن هنا كان لزاماً على المسلم أن ينظر في كل شيء وفي كل أمر بعين الاعتبار، وهو حاضر القلب، متفتح الحواس، جاد في محاولة الوصول إلى المعرفة، وإلا أتت معرفته معرفة حسية فقط، معرفة بمادة الأشياء، وهو أقل ما يمكن للإنسان أن يدرك منها؛ فالمسلم حين ينظر في الكون متأملاً دارساً متفكيراً يدرك أن الكون بكل ما فيه ومن فيه خلق بالحق، ولأجل مسمى، وأن لكل شيء طبيعته الخاصة، وقوانينه الثابتة، ووظيفته المحددة وغايته المرسومة، وأن الكون لم يخلق عبثاً. وكذلك يجب أن تكون حياة الإنسان نظاماً ودقة وعملاً وفهماً ينسجم مع قوانين الكون وسننه، وإلا أتت حياة الإنسان شاذة عنها، خارجة عليها، متعارضة معها.

والكون للمسلم هو كتاب الله المنظور، يرى فيه عظمة الخلق، ودقة البناء، وانتظام الحركة، وإتقان الصنعة، فيدرك من ذلك جانباً من صفات خالقه العظيم، ويتعلم عدداً من الشروط الواجبة للنجاح في هذه الحياة، ويرى في الكون وحدة في البناء تنطلق بوحدانية الخالق العظيم، ويرى فيه أنه مستحدث فان، كانت له في الأصل بداية بدأها الخالق البارئ المصور ومحاول العلماء حسابها، وسوف تكون له في يوم من الأيام نهاية هي بيد الخالق وحده، ويرى الإنسان من كل ذلك أنه في كل لحظة

من لحظات وجوده هو محتاج إلى رحمة الله ورعايته، وإلا هلك وهلك كل ما في الكون ومن فيه.

ويؤكد لنا ربنا ﷻ أن وجود الإنسان في هذه الحياة هو لغاية محددة، فيقول عز من قائل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦). ويوضح ربنا جلّت قدرته أن هذه العبادة ليست مقصورة على طقوس دينية محددة، بل إن الاجتهاد في عمران الحياة على الأرض عبادة، وطلب العلم عبادة، والعدل بين الناس عبادة، والسعي في مصالح الخلق عبادة، فيقول ﷻ: ﴿وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ١٠٥).

والمعرفة في التربية الإسلامية لا تنفصل عن الحكمة فهما من وسائل الإيمان الراسخ. والإيمان الراسخ يصقله العمل الصالح، ولذلك قرن ربنا ﷻ الإيمان دوماً بالعمل الصالح في محكم كتابه فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وكل من الإيمان الصادق والعمل الصالح يؤدي إلى التزكية المستمرة للنفس الإنسانية حتى تصبح نفساً مطمئنة، وكلها من وسائل التربية الإسلامية. ومع إيمان هذه التربية الإسلامية بالتخصص الدقيق، ويقينها من فوائدها، فلها لا تعرف فصلاً متكلفاً بين معرفة بالله ومعرفة بما خلق الله، أو بين دراسات دينية منعزلة انعزلاً كاملاً عن المعطيات الكلية للعلوم، أو معارف كونية منفصلة عن وحي السماء، أو بين علوم بحتة وتطبيقية منعزلة انعزلاً تاماً عن بقية المعارف الإنسانية. فالمعارف كلها في التربية الإسلامية تتلقى على غاية واحدة هي معرفة الله تعالى وعبادته بما أمر، وحين القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض. ومصدرها في هذه المعرفة هو: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبجملها الكون كله، والإنسان بمختلف أبعاده، والحياة بكل أشكالها وألوانها ومستلزماتها، ومنطلقها ذلك التصور الإسلامي الصحيح عن الإنسان والكون والحياة وعن معنى "لا إله إلا الله". ويتضح ذلك أكثر ما يتضح في الدراسات الكونية. ولذا فإننا نجد القرآن الكريم -ومنذ أربعة عشر قرناً- يحضّ الناس حصاً على الاهتمام بالنظر في الكون وفي كل مكوناته وأجزائه، وما به من مختلف صور المادة والطاقة والأحياء والظواهر المصاحبة له، وعلى الأخذ بأسباب ذلك كله للتعرف على الله والقيام بواجبات الاستخلاف في الأرض.

وعلى ذلك فالتربية في الإسلام يقتصر فيها العلم بالإيمان، والمعرفة باليقين، وكلها وسائل للتعرف على الله ﷻ وعلى بدعيه صنعه في خلقه، حتى يستطيع الإنسان المسلم أن يقوم بواجبات

الاستخلاف في الأرض بنجاح، ويتحقق رسالته في هذه الحياة على الوجه الأكمل خاصة إذا كان من حملة كتاب الله.

## ١٠- التربية فن وعلم تطبيق

إن العلم النافع يصدقه العمل النافع، كما أن الإيمان الصادق مقرون بالعلم الصالح، فلا تكفي عقيدة وعلم مجردان عن العمل النافع الصالح، فهذا رسول الله ﷺ يستعبد بالله من علم لا ينفع فيقول: "اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ودعاء لا يسمع، وقلب لا يخشع، ونفس لا تشبع، اللهم إني أعوذ بك من هؤلاء الأربع" (رواه مسلم). "العلم علمان: علم في القلب فذلك العلم النافع، وعلم على اللسان، فذلك حجة الله عز وجل على ابن آدم" (رواه الرضوي). ويروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه نظر إلى مصلين فقال: "... ولا يعزني كثرة رفع أحدكم رأسه وخفضه، ما الدين إلا الورع في دين الله، والكف عن محارم الله، والعمل بحلال الله وحرامه" (جمع بيان لعلم وفن عبد الله).

وعليه فإن التربية في الإسلام ليست مجرد كلام يلقن، أو نظريات تطرح في معزل عن مجال التطبيق وواقع الحياة، إنما هي ممارسة فعلية تتحد فيها كل الأخلاق والقيم والحكمة التي تقوم عليها، وتحقق فيها القدوة الحسنة في المري، والاتباع الفطن في المتري.

## ١١- التربية ضرورة إنسانية وليست ترفاً فكرياً

إن التربية في الإسلام ضرورة إنسانية تُقصد لذاتها، لا للمردود المادي أو الاجتماعي الذي يمكن أن يعود على الإنسان من وراء تحصيلها، وإن كان ذلك في حد ذاته ليس مستكراً؛ لأن الأصل في التربية الإسلامية أن تكون تأهيلاً للفرد لكي يكون قادراً على تنمية نفسه وأسرته ومجتمعه، لا مجرد الترف الفكري المنفصل عن التطبيق في الحياة، بل من أجل تحقيق الاستخلاف في الأرض القائم على العمل الذؤوب من أجل التنمية الشاملة للفرد وللمجتمع وللحياة. فالإنسان الفرد عمره محدود، وهو محاسب عن كل مال وصل إلى يديه.. من أين اكتسبه وفيه أنفقه؟ ثم إن له بعد هذه الحياة الموت، ومن بعد الموت البعث والحساب، ثم حياة أخرى خالدة يلقى فيها جزاء ما قدمت يداه في هذه الدنيا. هذه الصورة الإسلامية الصادقة للوجود الإنساني بصفة عامة ولحامل القرآن الكريم بصفة خاصة تجعل له معنى لا يمكن أن يتحقق إذا كانت حياته مقصورة على هذه الدنيا فقط، ولذلك فإن التربية الإسلامية تبعث في الإنسان الضمير الحي الذي يتحاسب دوماً قبل أن يتحاسب، ويؤن عليه أعماله قبل أن تؤن عليه في عملية من

المراجعة الذاتية الآتية المستمرة التي تعمل على تطهير قلبه وتركيبه نفسه، وتدفعه إلى المسارعة في عمل الخيرات باستمرار، في شؤله وكمال تعجز كل النظم التربوية الأخرى عن تحقيق شيء منه.

## ١٢- فلسفة التربية الإسلامية

هذا التصور الشامل الكامل للإنسان والكون والحياة والمعنى ألوهية الله، يمثل أساس التربية الإسلامية، فهذا الخالق العظيم متفرد في وحدانيته المطلقة فوق جميع خلقه، بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد، ومنزه تنزيهاً كاملاً عن كل من المادة والطاقة والمكان والزمان... فهذه كلها من صفات المخلوقين. والخالق جل في علاه منزه عن جميع صفات خلقه في ذاته وصفاته وأفعاله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (النوري: ١١)، فهو قديم لا أول له، باق لا آخر له، قادر لا حدود لقدرته، عالم لا يخفى شيء عن علمه، عادل لا يفلت ظالم من حكمه، منصرف لا يخرج شيء عن مشيئته، حكيم تتجلى في كل شيء حكمته، رحيم تعم الكون رحمته، ورعايته وعنايته، هو الكبير المتعال الأول الآخر، والظاهر والباطن، سبحانه له الأسماء الحسنى، والصفات العليا، لا إله إلا هو، ولا معبود سواه.

هذه بإيجاز هي فلسفة التربية الإسلامية، وهي فلسفة تقوم على التصور الإسلامي الصحيح للإنسان ورسالته في هذه الحياة، عبداً لله، خلقه تعالى لعبادته، واستخلافه في الأرض للقيام على عمارتها، وللعمل على إحفاق الحق وإزهاق الباطل، وعلى إقامة عدل الله فيها.

وتقوم التربية الإسلامية على أساس من الفهم الصحيح للكون ودلالاته، ولعلاقة الإنسان به، وبخالقه معاً وهو الله، وهذا كله ينعكس بوضوح في تحديد أهداف التربية الإسلامية، ويترأى في وسائلها، وفي رسم منهجيتها، وينعكس أجمال ما ينعكس على حامل كتاب الله الذي يجب أن يكون ملماً بالمعطيات الكلية للمعارف في عصره، ملتماً بتعاليم الكتاب الذي شرّفه الله بحمله، قادراً على الدفاع عنه بلغة العصر وبالحكمة والموعظة الحسنة حتى يفعل ما يحل في قلبه من أنوار القرآن الكريم، ولا يتم له ذلك إلا لفهم دلالات الآيات القرآنية التي يحملها، وإدراك مختلف جوانب الإعجاز فيها حتى يدرك فضل القرآن الكريم على غيره من الكتب، وفضل الإسلام العظيم على كل ما سواه من معتقدات. ■

أسناد علوم الأرض ورئيس لجنة الإعجاز العلمي بالجلس الأعلى للشؤون الإسلامية / مصر.

الحرية هي عدم قبول الروح سوى المشاعر العلوية  
والأفكار السامية، ولا تعني الإسار لأي مبدإ  
سوى مبدإ الخير والفضيلة.

\*\*\*



## نفخ الروح... متى تبدأ حياة الإنسان؟

أ.د. أولكون هاشكول\*

من هذا فلم يخرج لنا أحد بتعريف مقبول حتى الآن. والحقيقة أن هناك دافعا ما في هذا المجال يدفعنا أن نلتمس من العلم اختيار تفسير من بين التفسيرات المستقاة من الآراء المختلفة، وبين تلك التي تقوم على أساس المعتقدات. بيد أن كلا من الاثنين لا يعارض أحدهما الآخر؛ أما نحن فقد قادنا التفكير إلى الاعتقاد بأن الإجابة على السؤال عن بداية الحياة يتطلب تعاوننا بين شئني منحي المعرفة. وهذا الاعتقاد -بطبيعة الحال- قادنا إلى نقطة وجدنا أنفسنا فيها بين الدين والعلم وهو ما يحتاج إلى استكشاف واعٍ؛ لذا كان المقصد من هذه المقالة استكشاف

تعد محاولة تحديد النقطة التي تبدأ عندها حياة الإنسان واحدة من أكثر الموضوعات التي احتدم الجدل حولها في الأخلاقيات والعلم والفلسفة الحديثة. والحقيقة أن نتائج هذه المناقشة من الأهمية والحيوية بمكان، لأنها تمكننا من صياغة الأسباب الحقيقية حول بعض المسائل الخاصة بالأخلاقيات العلمية مثل الرؤية الأخلاقية بل والقانونية تجاه الإجهاض ونبوت الأجنة. ولقد أطال علماء وفلاسفة كثيرون وأطباء في الحديث حول تعريف الشخصية ومتى تبدأ حياة الشخص الحقيقية، وبالرغم

ت





الأمم من وجوه المتعددة.

وباعتبار أن عملية الانقسام (التوأمة) تحدث بعد حوالي ١٤ يوما بعد الإخصاب، وأن هذه العملية تنتج لنا شخصين وليس مجرد شخص واحد، فيمكن أن يسمى هذا مرحلة ما قبل الجنينية، أي المرحلة التي لم يتحد فيها الجنين الواحد بعد؛ وفي هذا الإطار تعرف لجنة الأخلاقيات التابعة للجمعية الأمريكية للخصوبة "الجنين" على أنه ما يتميز عن "ما قبل الجنين" تأسيسا على العلوم الطبية والسوابق القانونية.

وطبقا لهذا التقرير إضافة لتقرير "وارنوك" الذي كان خلف تشريع التخصيب البشري وعلم الأجنة في عام ١٩٩٠م، تستمر مرحلة ما قبل الجنين لمدة ١٤ يوما بعد التخصيب، ويجب احترام هذا الكيان دون إعطائه الحماية المطلقة.

والآن وتأسيسا على هذه التقارير والتشريعات التابعة لها يسمح بإجراء البحوث على الأجنة حتى اليوم الرابع عشر فقط وحتى تتكون ما يسمى بالخط البدائي أو بداية الجهاز العصبي والذي يستحيل بعده حدوث التوأمة أو عملية الانقسام.

### النظرة المسيحية

والحقيقة أن المراجع النصرانية في هذا المضمار غنية وشيقة، غير أنها يمكن قراءتها بطريقتين؛ فيعد الإجهاض في أي مرحلة من مراحلها كبيرة من الكبائر؛ غير أنه وعلى مدى قرون عديدة اعتبر إنهاء الحمل في مرحلة مبكرة أخف جريمة منه في مراحل تالية. وتم عزو هذا إلى الرؤية القائلة بأن الروح لا تدخل الجسد إلا بعد أربعين يوما من الإخصاب وهو المفهوم المستقى من أرسطو.

لذلك بمايز العديد من النصارى بين الموقف الأخلاقي من الجنين المخلوق وغير المخلوق، ويعتقدون أن الكائن الحي لا يكتمل إلا بعد نفخ الروح والتي تتم في مرحلة تالية؛ أما بالنسبة لبعض النصارى الآخرين، فالتخصيب هو النقطة التي تبدأ عندها الحياة أصلا.

### النظرة القرآنية

وبينما كنا نبحث ونقرب عن الوقت الذي يتبدئ فيه الحياة حقيقة وجدنا قول الله تعالى يخبرنا بوقت نفخ الروح في الجسد حيث يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّفْسَ عَلَاقَةً فَخَلَقْنَا الْعَاقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَّوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَرَأَرْنَا اللَّهَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ (الأنبياء: ١٨) وتبين هذه الآية أن مرحلة الجنين تتكون فيها العظام أولا، ثم تتشكل العضلات ويتم هذا طبقا لتطور علم الأجنة حيث تبدأ العظام في التكون

ويوضح ماسون وماكامل تيمث أن ما بعد بداية التحول إلى كائن حي هو قرار أخلاقي بالدرجة الأولى. فمعظم النصوص الدينية تذهب إلى أن ما يجعل الجنين إنسانا حيا هو نفخ الروح فيه، وحين تلتقي الروح بالجسد يتخلق منهما الكائن الحي الذي يجب له كل الحقوق وأسطها حق الحياة.

في ضوء هذه الاعتبارات كان علينا أن نبحث عن الوقت الفعلي لنفخ الروح حتى يتسنى لنا منع أنفسنا من قتل "أشخاص أحياء" سواء بالإجهاض أو بالبحث في مجال استنساخ الأجنة؛ فالغرض من الدراسة الحالية هذه إذن تحديد موعد بدء سريان الحياة في جسد الإنسان في أثناء مراحل تطوره.

إن توفر الخلايا الجذعية<sup>(١)</sup> الجنينية والتي تؤخذ من الكائنات الثديية ربما يفتح آفاقا جديدة لعلاج الأمراض المستعصية. فهذه الخلايا لها قدرة التأثير على أعضاء مختلفة، وباستطاعتها توليد أي خلية - باستثناء خلايا المشيمة - كما أنها باقية (أي لا تهلك)؛ غير أن توليد هذا النوع من الخلايا يتطلب التدمير المبكر للأجنة البشرية، وهنا تبرز لنا الأسئلة الأخلاقية نفسها، وتصدر على السطح الصراعات التي تسمع غالبا حين توضع أخلاقيات الإجهاض على طاولة المناقشة. فأغلب الناس المنخرطين في حركة "مع الحياة" يعتبرون الجنين إنسانا كاملا له روح وله حقوق كذلك التي يجب لأي مواطن ومنها حق الحياة. لذلك كان أي عمل يجرح أو يقتل الجنين بمثابة جريمة قتل. وعلى الرغم من هذا يرى الكثيرون من أعضاء حركة "مساندة الاختيار" أن بداية الحياة تتم في مراحل متأخرة من الحمل. وعليه فإن قتل جنين تم تخصيبه حديثا لا يعد في عرفهم قتلًا لإنسان.

لكن ما حال الجنين الذي عمره أيام معدودة إذن؟ هل هذا الجنين حي؟

### الجنين متى يكون حيا؟

نعم، فمنذ بدايته يعتبر الجنين حيا وليس لأحد أن يعترض على هذا؛ لكن هل يعد الجنين حينئذ كائنا حيا كاملا؟ إذا استطعنا أن نمسك بالجنين في مراحل الأولى قبل أن يصبح كائنا، سيكون مقدورنا أخذ الخلايا الجذعية دون أي قلق. وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن سريان الحياة يبدأ في الجنين حين تبدأ أنظمة هذا الجسد في العمل كوحدة متكاملة، قرب انتهاء المرحلة الجنينية.



من هنا يمكننا القول إن القدرة المعلوماتية للبويضة الملقحة (Zygote) والجنين في مراحله الأولى لا تكفي لتوجيه أي شيء خاص بالكائنات الحية ولا تكفي كمادة جينية ثابتة لكائن حي.

### الجسم البشري والروح

أما "جوزيف زايفرت" فهو يتعامل مع الجسم البشري والروح كمادتين غير كاملتين (أي نجد هنا فكرة "الثنائية" Dualism) واللتان تكملان في الكائن البشري كمركب. وكأن هذه الرؤية تتطلب أن الروح بالنفخ في مادة ستكون هي المعدن لكائن بشري أو جنين تتطور أغشيتها بما يسمح لوظائفه الإدراكية بالعمل. وتوافق هذه الرؤية مع قولنا بأن الروح تضاف إلى جسد مادي موجود أصلاً حين تبدأ الأعضاء والأنظمة الجسدية حديثة التشكيل في العمل سوياً.

وإذا كان للروح أن تعمل عملها بعد أن تقوم العمليات البيولوجية بإنتاج حياة بشرية جديدة، في وقت محدد تماماً لا تأخر عنه ولا تقدم عليه، فسيكون من الطبيعي أن يستتبع هذا حدوث النفخ في آخر المرحلة الجنينية والتي تنتج فيها بداية عمل الجسد ككل - إضافة للمخ حديث التكوين الذي يعمل كنقطة مركزية لتبادل المعلومات - مستوى جديداً من الحياة، وتكمن العمليات التي تؤدي إلى كائن حي أن تأخذ طريقها في العمل.

### الفهم الأرسطي

وهذا التفسير البديل يتفق حقيقة ليس فقط مع الحقائق الطبية الحديثة وإنما مع الفهم التقليدي لعملية نفخ الروح الذي يدافع عنه العديد من رجال الدين الرومان الكاثوليك أصحاب الأخلاقيات والتي تستقي أيضاً منابها من أرسطو.

ورجال الدين هؤلاء يقولون بأن الروح لا توجد في الجسد حتى توجد مادة منظمة ملائمة. وبالرغم من هذا فإن بعض النصارى يعتقدون أن عيسى عليه السلام كان بشراً منذ لحظة الحمل، وعليه فكل جنين يصبح كائناً حياً منذ لحظة الحمل، بيد أن آخرين يرون أن عيسى عليه السلام كان استثناءً، بل إن الاعتقاد هو أن الأحداث التي صاحبت الحمل بعيسى عليه السلام ونموه سببها هو نفسه عند نزوله.

وعدم اعتبار الجنين كائناً حياً له دلالتة ومغزاه في مدى أخلاقية ومشروعية الاستخدامات المختلفة التي يمكن أن تؤثر على وضع وحال الجنين مثل حبوب الصباح (منع الحمل)،

كبتين قوي في الأسبوع السابع، ثم تتشكل العظام وتغطيها في الأسبوع الثامن من مراحل تطور العضلات التي تخرج من الخلايا البدنية الوسطى. يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

وبين هذا الجزء الأخير من الآية الكريمة أن تكوين العظام والعضلات ينشأ عنه خلق آخر وهو ما قد يشير إلى بداية نفخ الروح بعد نهاية الأسبوع الثامن.

وفي هذه المرحلة تملك الجنين خواص بشرية مميزة وتتكون لديه صوره بدائية لجميع الأجزاء والأعضاء الداخلية والخارجية، وبعد الأسبوع الثامن يطلق على هذا المخلوق "جنين" ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (السجدة: ٩). وتؤكد هذه الآية ما سبق بيانه في الآية السابقة، وهو أن الروح تنفخ في الجنين بعد أن تتشكل؛ كما بين هذا أن الحراس الخاصة كالسمع والبصر تبدأ في التطور بهذا النظام أي بعد نفخ الروح وهو ما يتفق أيضاً وعلم الأجنة، وتتشكل الأذن الداخلية قبل بداية تشكل العينين، ويكون ذلك في حوالي الأسبوع العاشر أو الحادي عشر في مرحلة التطور. ومن المهم هنا أن نلفت النظر إلى أن الله تعالى يتحدث عن الجنين بضمير الخطاب ﴿لَكُمْ﴾ بعد نفخ الروح، بينما يشير إليه بضمير الغائب "الهاء" قبل نفخ الروح، وكأنه يشير من طرف خفي إلى أن الجنين في هذه المرحلة ما هو إلا شيء أو عنقود من الخلايا فقط.

لذا فنحن مع الرأي القائل بأن بداية الحياة الحقيقية تتم حينما يصل الجنين إلى الأسبوع التاسع، أي بعد اليوم السابع والخمسين، بعد أن تتشكل العظام وتتكون العضلات وقبل تشكل السمع والبصر؛ في هذا الحين فقط يتكون لدينا كائن متعدد الخلايا وليس فقط مجرد كتلة من الخلايا الحية المتلاصقة بعضها إلى بعض. فالروح تتطلب وجود مادة فردية. ولا يوجد مثل هذا كائن بشري له أعضاء؛ فالحيوان المنوي أو البويضة اللذان يعيشان مستقلين في عزلة عن بعضهما البعض لديهما القدرة على إنتاج كائن، كما أن الجنين الذي هو عبارة عن مادة حيوية تحتوي على الحمض النووي الـ "DNA" له قابلية التحول إلى إنسان، وهو ما يعني أنه لم يصبح إنساناً حقيقياً بعد.

شئنا أم لا شئنا أصبحنا شيئاً آخر ولكن واحداً من هذين الشئتين أقرب لتحقيق هذا التحول من الآخر؛ لذا يقال إن الجنين أقرب إلى أن يكون كائناً حياً من مجرد الحيوان المنوي والبويضة.



## على الدنيا العزاء

أيتها الدنيا... يا مسكينة... يا أسيرة...

في قبضة ظالم تدورين...

بجرعك غُصَّ الظلام... ويُلْبِسك الليالي...

ويحِل بياضك سواداً، وسَوَادُهُ بياضاً...

لا تَبْتَسِي، فالصُّبح قادم...

والظالميون إلى بحر الظلام سينحدرون...

\*\*\*

والوسائل التي توضع داخل الرحم وتكفي لمنع الحمل عن طريق إيقاف الخصيب، والتخلص من الأجنة الزائدة، والتي تتكون أثناء عملية التخصيب المعمل، بالإضافة إلى أبحاث الأجنة. ومن الصعب حقيقةً تبرير القيام بالإجهاض بعد حدوث الحمل سواء كان الكلام من وجهة نظر دينية أو غير دينية؛ بيد أن قضية الحديث عن الاستخدام الممكن للأجنة المعملية الزائدة تجعل من عملية نفع الروح أمراً هاماً. وحتى إن قيل إن النسخ لا يحدث إلا في مرحلة متأخرة من تطور الجنين فلا يكون هناك سبب لعدم استخدام الأجنة الأخرى طالما أن الغرض هو علاج إنسان لا يمكن علاجه إلا بطريقة استخدام الأجنة؛ وهو بالطبع أمر أخلاقي بغض النظر عن الجانب الديني، فإن كان نفع الروح لا يتم حتى يبدأ الكائن الجديد في استخدام وظائفه كلية، فقرار عدم استخدام أجنة المختبر هذه لأغراض طبية سيكون مسؤولية كبيرة. إن أبحاث الخلايا الجينية لديها الكثير لتعطيها للبشرية كي تحفظ حياة أفراد وتنقذ آخرين وتعالج أمراضاً مستعصية، وهو ما يجعل من الواجب بمكان أن نسبر آفاقها ونضع لها المعايير والشريعة الأخلاقية. وفي الأغلب ستتموت كل الأجنة الزائدة في العيادات في النهاية نظراً لخطأ المختبر أو الآلة، وستهلك هذه الأجنة عن طريق تحفيها أو بطرق أخرى.

ولكن ربما يقوم هؤلاء باستخدام هذا البحث في خدمة البشرية ويجلبون لها النفع من خلاله. وإذا صح هذا الأمر فلن يكون هناك فقدٌ في الأرواح، فما يتم تدميره في هذه العملية هو المادة البشرية الحيوية التي لم تنفخ فيها الروح بعد، وبممكننا حينئذ استكشاف آفاق استخدام الأجنة ومساعدة الأشخاص الذين أعنتهم أمراضهم للمستعصية، ومن هنا ندلف إلى الطبيعة ونجعل العلم مطية لمساعدة الآخرين وتخفيف آلامهم وتحسين صحة الإنسان. ■

(١) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن الإنكليزية: هياء الدين إبراهيم.

### الهوامش

(١) الخلايا الجذعية: بعد أن يتم تخصيب البويضة في الرحم تبدأ هذه البويضة المخصبة بالانقسام إلى ٢، ثم إلى ٤، ثم إلى ٨... الخ. من الخلايا. وقد لوحظ أننا إن أخذنا هذه الخلايا الأولى وقيل أن تنقلب إلى خلايا مخصصة (مثل خلايا العين أو خلايا الجلد... الخ.) فإنها تدعى بـ"الخلايا الجذعية"، ولها قابلية لتوليد أي نوع من الخلايا في الجسم.



إننا نحسب

أن النظرة

النورية إلى المسألة الغربية

أ.د. قطب مصطفى سائو \*

الإلهية، يضع

للمرء أن يتكهن التزام

المتلصق الموضوعية والعلمية في

النظرة إلى العالمين، بل لا غرو أن يعلن التشاؤم

والتزم شفاه المغلوبين المهزومين، ولا عجب أن يغدو الانهيار

والانحدار والولع بطريقة الغالبين منهلاً يهمل منه المهزومون،

مصدقا لما قرره عالم العمران الإسلامي المورخ ابن خلدون<sup>(١)</sup>

والإمام بديع الزمان النورسي رحمه الله دفع بقلبه الفكري

والعلمي والمنهجي صوب كلتا النظريتين الانحدارية والانحداعية،

فأوسعهما مراعاة وتقويما وتصحيحا، ودعا إلى التخلي عن

كليهما، كما أنه عني -بطريقته الخاصة- اعتماد منهجية بديلة

تتطلق من المنهجية والموضوعية وترتكز على الواقعية في النظرة إلى

الأشياء، وتنتهي من الانحدارية والانحداعية.

وسعيًا إلى مزيد من التحليل والتحقيق للنظرة النورية المحككة

إلى المسألة الغربية في ضوء ما عني به العالم الإسلامي من هزيمة

وانسحاب إبان الحربين العالميتين، نرى أن نصغي إلى ما أدلى

به الإمام البديع محمدا الموقف الأحكم من المسألة الغربية في

إذا تأملت حظها من التحليل العلمي الرصين والتحقيق

الفكري الشامل، فلها مستهم -إلى حد كبير- في إنقاذ العالم

الإسلامي مما يحتاجه من محن وفلافل وامتحنات لكرامته نتيجة

انحداع وانهيار شطر كبير من مفكره بالنظرات غير الدقيقة إلى

المسألة الغربية. كما أننا نحسب أن انطلاق مهندسي سياسات

العالم الإسلامي من النظرة النورية في رسم علاقة الأمة بالغرب

بعبثه ونجره من شأنها إنقاذ الجيل الصاعد من الناشئة مما هم

واقعون فيه من انحداع والخرام وتطرف في الرؤية والنظرة إلى

المسألة الغربية، فضلا عن أنه من شأن الأحدث بتلك النظرة القيّمة

فتح باب واسع ومبين من الحوار والتواصل بين العالم الإسلامي

والغرب، وذلك على أساس متين من القيم المشتركة للمتمثلة في

المبادئ السامية التي تقوم عليها الشرائع السماوية كلها.

أوروبا بين الدفع والضرر

في خضم تراكم الأحداث المفجعة، وتكاثر الابتلاءات

كتابه "المعاني"، حيث قال ما نصّه: ".. حينما سار سعيد الجديدي"<sup>(٢٧)</sup> في طريق التأمل والتفكير، انقلبت تلك العلوم الأوربية الفلسفية وفنوها التي كانت مستقرة إلى حد ما في أفكار "سعيد القدمي" إلى أمراض قلبية، نشأت منها مصاعب ومعضلات كثيرة في تلك السباحة القلبية، فما كان من "سعيد الجديدي" إلا القيام بتمحيض فكره، والعمل على نفضه من أدران الفلسفة المزخرفة، ولوئحات الحضارة السفهية؛ فرأى نفسه مضطراً إلى إجراء المحاوراة الآتية مع الشخصية المعنوية لأوربا لكبح جماح ما في روحه من أحاسيس نفسانية منحازة لصالح أوربا، فهي محاوراة مقتضبة من ناحية، ومسهية من ناحية أخرى. ولئلا يساء الفهم، لا بد أن ننبّه: أن أوربا اثنتان: إحداهما: هي أوربا النافعة للبشرية بما استفادت من النصرانية الحقة، وأدت خدمات حياة الإنسان الاجتماعية بما توصلت إليه من صناعات وعلوم تخدم العدل والإنصاف، فلا أخاطب -في هذه المحاوراة- هذا القسم من أوربا؛ وإنما أخاطب أوربا الثانية، تلك التي تعفنت بظلمات الفلسفة الطبيعية، وفسدت بالمادية الجاسية، وحسبت سيئات الحضارة حسناً لها، ووهمت مساوئها فضائل، فسافت البشرية إلى السفاهة، وأردتها الضلالة والتعاسة. ولقد خاطبُت في تلك السباحة الروحية الشخصية المعنوية الأوربية بعد أن استئثنت عيائن الحضارة".<sup>(٢٨)</sup>

وأما تاريخ هذه السباحة الروحية المعنوية، فإنه يعود إلى أيلول عام ١٩١٩م عندما دهم العالم الإسلامي أمرٌ لا عزاء له، مهّلت لسقوط البقية الباقية من الخلافة الإسلامية في أقل من خمس سنوات، وقد ولدت تلك الهزيمة النكراء شعورين متناقضين ومتضادين، أحدهما: الشعور باليأس والقنوط الذي دفع بالسواد الأعظم من الناس إلى التروّ من الغرب واستمراء العيش في كنف الماضي السلب، والتلذذ بترديد أبحار ذلك الماضي، مع رفض الأخذ بسائر وسائل وأسباب الترفي والتقدم. وأما الشعور الثاني، فقد تمثّل في الرضى والقناعة بالوطنية، والانبهار والانهماج والتروّ من الماضي التليد، مع الاعتقاد الجازم بأن السعادة والرخاء والاستقرار والأمان مرهون كل أولئك بالتبعية الخالصة للغرب الغالب. أمام هذين الشعورين، حاول الإمام -كعادته- أن يهيئ شعوراً ثالثاً لا ينتمي إلى أي من هذين الشعورين، وينبثق من إيمانه الخالص بأن الابتلاء لا يعني نهاية المطاف، بل يجب أن يعقبه صبر واصطبار وتعلم من الماضي، وإدراك الحاضر، والتخطيط للمستقبل، يقول: ".. إن المصيبة ليست شراً محضاً، فقد نشأ

السعادة من النكبة والبلاء مثلما قد تفضي السعادة إلى بلاء.. لقد فقدنا بهذه الهزيمة سعادة عاجلة زائفة، ولكن نتظرنا سعادة آجلة دائمة، فالذي يستبدل مستقبلاً زاهراً فسيحاً بحال حاضر جزئي متغير محدود، لا شك أنه رابح.. فلو كنا منتصرين غالبين لكنا ننحذب إلى ما لدى أعدائنا من الاستعمار والتسلط، وربما كنا نغلو في ذلك.. فهذه المدينة.. التي لم نر منها غير الضرر، وهي المرفوضة في نظر الشريعة، وقد طغت سيئاتها على حسناتها، تحكم عليها مصلحة الإنسان بالنسخ، وتقضي عليها بقطة الإنسان، وصحوته بالانقراض؛ فلو كنا منتصرين لكنا نتعهد حماية هذه المدينة السفهية المتمردة الغادرة المتوحشة معنى في أرجاء آسيا.."<sup>(٢٩)</sup> إن نظرية متفحصة في نظريته في المسألة الغربية، تهدينا إلى تقرير القول بأن الوسطية والاعتدال عند النظر إلى الأشياء كان الدافع والأساس الذي تقوم عليه نظرة الإمام.

وقد عني رحمه الله بتحقيق القول في الأسباب التي جعلت أوربا الأولى نافعة للبشرية، وحصر تلك الأسباب في سببين أساسيين، أولهما: سبب عُدّي دخل للبشر في إيجاده، وثانيهما: سبب مادي، للبشر دخل في إيجاده. أما السبب العقدي، فإنه يتمثل في التزام أوربا الأولى بالبقية الباقية من النصرانية الحقة التي لم تظلمها يد التحريف والتغيير والتضليل والتبديل، ذلك لأن النصرانية الحقة التي أتى بها المسيح عليه السلام، تدعو إلى الرحمة والسماحة والتواضع وصلة الرحم، وهذه النصرانية الحقة تقوم في جنورها على الحنيفية السمحاء، وقد بعث بها أيضاً نبينا عليه صلوات ربي وسلامه، ووصفها ذات يوم بأنها اللبنة التي تكمل بقية البناء. وأما السبب المادي الآخر، فإنه يعود - في نظر الإمام - إلى الخدمات الجليلة التي قدمتها للبشرية من خلال ما توصلت إليه من صناعات وعلوم وإنجازات، وترفع عن العالمين المشاق والصعاب، وتوفر لهم وسائل الراحة والرفاهية. على أنه من الخري بالتقرير أن أوروبا -الأولى أو الثانية- لم تصل إلى هذا المستوى من الترفي والتقدم والتطور إلا من خلال ما تميزت به من إبداعية وعمق في التفكير والتخطيط والنظام، والتزامها الحزم والانضباط والروية والأمانة فيما تقدم عليه من عمل أو صناعة. إن هذه الخصال التي لخصها الإمام النورسي في بيان رفيع تعد في حقيقتها أسباب تقدم الشعوب ونهضة الأمم. وتلك سنة الله الكامنة في الأمم قاطبة، ولم ولن تتخلّف في أمة قط مهما سمّت أو دنت عقيدتها.





## أسباب كون أوروبا الثانية ضارة للبشرية

وتخدير الشعور مؤقتاً، وكماليات المرخفة وأهواك المنومة.. فتعساً لك ولدواتك الذي يكون هو القاضي عليك..".<sup>(٥)</sup>

### تقوم منهجي للنظرة النورية إلى المسألة الغربية

وبالرجوع إلى أهل العلم بمناهج البحث والتحقيق، نجد ثمة اتفاقاً بينهم على أن التحليل العلمي الدقيق للأفكار ينبغي أن تتوفر فيها جملة من الأسس الضرورية الهامة، ومن أهمها: الموضوعية، والعلمية، والشمولية، فهلم بنا لنقف ههنا نتبين خلالها من مدى توافر هذه الأسس في النظرة النورية إلى المسألة الغربية.

### أولاً: الموضوعية في الطرح

ليس من مرية في أنه من طبيعة الأفكار والآراء التأثير المباشر وغير المباشر بالثقافات القبلية والتقليبات الزمانية والمكانية والعادية، ولا يسلم من هذه الظاهرة من المفكرين والعلماء إلا فئة قليلة يتميزون بالصمود أمام العواصف الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية.

ولكن نظرة متعمقة في جل الأعمال التي تركها الإمام النورسي، تدلّك على محاولته الدائمة عدم إخضاع أفكاره وآرائه الإصلاحية لظروف الزمان والمكان؛ فعلى الرغم من الظروف النفسية العويصة الصعبة التي كانت الأمة الإسلامية تمر بها إبان الحرب العالمية الأولى، وعلى الرغم من سيطرة الشعور بالهزيمة واليأس لدى البعض، واستعلاء الشعور بالانهار والاندحار لدى البعض الآخر، فإن الإمام النورسي أي أن تكون نظرتهم أسيرة لأي من هذين الشعورين. ولكأن بالإمام وهو يقدم نظرتهم القائمة على الموضوعية العلمية، يريد أن يقرر بجلالة ضرورة العودة إلى المنهج القرآني عند التعامل مع الأفكار والأشخاص، وهذا المنهج يرفض تبعية تعليم الشرع للزمان والمكان غير الطبيعيين، ويراهما تابعين وخاضعين لها، وفي هذا يقول المولى الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ تَتَغَلَّبُوا أَغْلِبُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٨١).

### الثانية: العلمية والشمولية في الطرح

من المتواتر لدى أولى العلم والنهى أن نظرة المفكر المنصف الواعي إلى الأحداث والمسائل ينبغي لها أن تختلف عن نظرة العامة، فالمفكر الحصيف يسمو بنظرته من أن تتأثر وتخضع لأهواء العامة وشهوات الحكام، ويدفعه ضميره الحي إلى التغلب على لخطات الغضب والانفعال عند البوح برأيه أو نظرتهم في مسألة من المسائل. إن غياب العلمية والشمولية في معظم الدراسات والأبحاث التي عني أربابها بتناول المسألة الغربية من زاوية ضيقة هو المسؤول

ولئن كان هذا تحليلاً لأسباب كون أوروبا الأولى نافعة للبشرية، فإن ثمة أسباباً لكون أوروبا الثانية ضارة ومضرة للبشرية، وقد عني الإمام رحمه الله بتحريض القبول في هذه الأسباب في جملة من كتبه. فتجدد أوروبا الثانية عن مبادئ هذه التصارنية يعد السبب الأساس في كونها ضارة ومضرة بالبشرية؛ وأما السبب الثاني الذي جعل أوروبا الثانية غير نافعة، فإن ذلك يعود إلى لجوئها إلى استخدام نتائج الصناعات والإنجازات التي توصلت إليها فيما لا يعود على البشرية بنفع ولا فائدة، بل إنها تقود البشرية إلى مهاوي الدمار والضللال والضيايق والتهيب، مما جعل هذه أوروبا أكثر إضراراً وإساة إلى البشر.

وانطلاقاً إلى أنه ليس من الوارد عيش الإنسان على هذه الأرض دون أن يستند إلى معتقد ولو كان فاسداً ودنياً، فإنه كان لا بد لأوروبا الثانية من أن تتبنى بعد ترمدها على الديانة التصارنية ومبادئها، ديانة أخرى محرفة من الديانة الصحيحة الحقة تتخذ من الفلسفة المادية أساساً لها، وتقوم على التكرار الصارخ للخالف المدير العزيز الحكيم، وتأنى بنفسها عن مبادئ التصارنية الصحيحة رغم ادعائها إياها، كما أنها لفظت في كثير من سلوكياتها القيم والأخلاق الحميدة التي أتى بها الدين العيسوي، ولا تعرف بشيات تلك القيم أو الأخلاق في المجتمعات، بل إنها ترى قيماً وأخلاقاً خاضعة للظروف والأزمنة والأمكنة انطلاقاً من مبدأ التفسير المادي للتاريخ، والمعتقد والأخلاق، فكل شيء يحدث في المجتمع وفق هذا المبدأ إنما يحدث للظروف المادية، فالمادة هي المسؤولة عن تشكيل المعتقد والأخلاق، وتؤثر سلوكيات الأفراد والجماعات بالمادة. بناء على هذا التفسير الجائر للتاريخ والمعتقد والقيم، لم يكن من عجب أن تتحول الحياة في كثير من الأقطار التي تقيم عليها هذه الفلسفة إلى حياة ملوثة بالاضطراب والإباحية والسفسفة والفلسق. وقد صور الإمام النورسي حالة الحياة التي تسيطر عليها هذه الفلسفة وصفاً دقيقاً، فقال ما نصّه: "فيا أوروبا التي نأت عن التصارنية وابتعدت عنها، وانغمست في السفاهة والضلالة، لقد أهديت بدهايك الأعور كالدجال لروح البشر حالة جهنمية، ثم أدركت أن هذه الحالة داء عضال لا دواء له؛ إذ يهوي بالإنسان من ذروة أعلى علبين إلى درك أسفل سافلين، وإلى أدنى درجات الحيوان وحضيضها، ولا علاج لك أمام هذا الداء الريبيل إلا ملاهيك الجذابة التي تدفع إلى إبطال الحس،

المسؤولية التامة عن المواقف غير المتوازنة من المسألة الغربية، وبالتالي في النظرة النورية إلى هذه المسألة، يجد المرء أنها تمت بنفسها من الوقوع في هذا التغيب المتعمد للعلمية والشمولية والموضوعية، إذ إنها اتسمت - كما رأينا - بتسليط الضوء على المسألة بصورة متوازنة وصریحة، ولقد اختار الاعتدال والوسطية في النظر إلى هذه المسألة؛ فالغرب في نظره ليس كله شراً، وليس كله خيراً، بل إن العقيدة النصرانية الحققة هي الأخرى ليست عقيدة خالية من المبادئ السامية والخصال الحميدة، وليست هي المسؤولة عن نشأة ما سُمّي بأوروبا الثانية الضاربة، وبالتالي، فإن التعامل معه ينبغي أن يقوم على استحضار أمين لهذا البعد.

وخلاصة القول، لقد أوفت النظرة النورية على العلمية والشمولية التي تحتاج إليها الأمة الإسلامية في العصر الراهن في تعاملها مع المسألة الغربية، وكان مقتضى هذه العلمية والشمولية ضرورة العودة الصادقة إلى تبني الأسباب والخصال الحميدة التي استندت إليها أوروبا في بناء هُمتها وتقدمها وحضارتها، كما كان مقتضاها ضرورة الوعي على أهمية الأديان وخاصة الأديان السماوية في ترشيد الإنجازات والصناعات وتسخيرها لخدمة البشرية والإنسانية؛ فليس ثمة دين سماوي يدعو أتباعه إلى تدمير البنى التحتية للأمم، وسفك الأرواح، وهتك الأعراس، وإبادة الممتلكات، والاستعلاء في الأرض، والتكبر على العباد، والخضوع للشهوات والنزوات، فكل أولئك آفات وأمراض تواترت الأديان السماوية على محاربتها والوقوف منها موقف الرفض والإنكار.

### النظرة النورية وواقع العالم الإسلامي الراهن

لئن تأمل المرء في النظرة النورية وما حوته من إشرافات وتحليلات قيمة، ولئن تابع المرء بدقة وإمعان الظروف العالمية التي كانت سائدة يوم أن باح الإمام رحمه الله بهذه النظرة، فإننا سنجد أن أوروبا التي كان يعينها في نظره لم تكن منقسمة على نفسها إلى أوروبا النافعة وأوروبا الضاربة، وإن قامت بينها الحروب والقتال والأزمات، بيد أنه كان يعي بنظرته ما يوجد في حضارة أوروبا ومدينتها من محاسن ومساوئ، وعُدَّ محاسنها أوروبا قائمة بحد ذاتها، كما اعتبر مساوئها أوروبا الثانية المختلفة عن الأولى. لكن في هذه النظرة النورية الشاملة تستشرف المستقبل وتؤكد بأن أوروبا ستنتقسم - إن عاجلاً أو آجلاً - على نفسها إلى أوروبا النافعة وأوروبا الضاربة!

وبناء على هذا، فإنه حري بعموم الأمة وخاصة نُخبها ومفكرها

المخلصين الغيارى أن يستأنسوا وينطلقوا من النظرة النورية العلمية والموضوعية إلى المسألة الغربية مفرقين في أطروحاتهم بين أوروبا النافعة (الغرب النافع) وأوروبا الثانية (الغرب الضار)، فأوروبا النافعة ينبغي التواصل معها، وفتح حوارات واسعة معها، والبحث عن السبل الممكنة لتعميق العلاقات والاتصالات بينها وبين العالم الإسلامي على مختلف الأصعدة والجلات سعياً إلى إسعاد الإنسانية والبشرية برمتها. ولا بد من استثمار ما في الغرب النافع من محاسن وخيرات وتوظيفها لخدمة قضايا الأمة ومساندة مواقفها. لم يعد ينفع العالم الإسلامي اليوم - قادة وشعوباً - الإصرار كل الإصرار على تحميل الآخرين - وخاصة الغرب - مسؤولية ما يمتح الآمة من جوائح وفجائع وفظائع واعتداءات، كما لم يعد يسعفنا التوغل في المثالب وانتظار المدد السماوي دون الأخذ بالأسباب والعوامل، فذلك المدد حاشاه أن يدركننا إذا لم نغير من واقعنا الفكري والسياسي والاجتماعي والاقتصادي، وصدق الله جل في علاه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يَحْكُمَ مَا يَنْفُسُهُ﴾ (الرعد: ١١)، يومئذ سيتحقق لها ما وعد الله به.

وصفوة القول، إذا أراد العالم الإسلامي الإسهام في بناء عالم آمن مسلم متحاب ومتعاون ومتربط، فإنه حري بنا إعادة النظر في علاقتنا مع الآخرين، وجعل الإيمان بالتنوع والتنوع قاعدة إيمانية لا نغيد عنها، بل نبني عليها الجسور مع أتباع الديانات الأخرى، وخاصة منها الديانات السماوية، لمصلحة الإنسانية، ومقتضى هذا ضرورة إعادة النظر الحصري في كثير مما قرره المدونات الفقهية حول علاقة المسلمين بغير المسلمين. فليس من شك في أن هذه التقسيمات صياغات فقهية لا تسمو على المراجعة والتقويم والتعديل في ضوء ما يواج العالم اليوم من ظروف سياسية واجتماعية وفكرية واقتصادية لم يكن لها وجود يوم أن صيغت تلك الاجتهادات الفقهية حول رسم علاقات المسلمين بغيرهم. ■

١) مدير المعهد العالمي لوحدة الأمة الإسلامية / ماليزيا.

#### المواضع

- ١) انظر: مقدمة ابن خلدون، ص ١٣٧. (بصرف)
- ٢) لقب "سعيد الجدي" أطلقه الإمام النورسي على نفسه من وصوله منفياً إلى مدينة "بارلا" سنة ١٩٢٧م وحتى خروجه من سجن "أفيون" سنة ١٩٤٩م.
- ٣) انظر: للمعات لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص ١٧٨-١٧٧ (بصرف واختصار).
- ٤) انظر: صيفل الإسلام، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص ٣٥٥.
- ٥) انظر: للمعات لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص ١٧٨.



الابتعاد عن العلوم الوضعية بحجة أنها تؤدي إلى  
الإلحاد تصرف صياني. أما النظر إليها وكأنها تعادي  
الدين فهو حكم مسبق وجهل مطبق.

\*\*\*

## أنا أذن عبد الله

أ.د. عرفان يلماز \*



عزيزي عبد الله!

إلى انجرات.. يريك تلك الآيات الباهرات لأنك مخلوق عاقل ومدرّك. وقد وضع في جسمك العديد من هذه الفنون الرفيعة، وأعطاك من العقل والعلم ما يكفي لإدراك هذه الآيات الباهرات ومعرفتها. فبالعلم تستطيع تقييم حكم الوجود وأوصافه العديدة، ولكن لكي تفعل هذا وتحول معلوماتك عن الأشياء إلى حكمة وترتقي إلى أفق المعرفة والعرفان، أعطاك خمس حواس لتصل بها بالعالم الخارجي وتتعرف على خواص الأشياء فيه.

إنك إن لم تعرف شيئاً عن الضوء وعن الألوان فستبقى معلوماتك المادية عن الموجودات ناقصة، كذلك إن لم يبتني خالقك في رأسك لم تستطع أن تسمع الموسيقى الإلهية المتحللة في تغريد الطيور، وخفيف أوراق الشجر، وخرير المياه، وهبوب الرياح.. ولبقيت معلوماتك في هذه الأمور ناقصة. بينما يستطيع كل شيء بلسانه الخاص خالقها. وأنت تبصر الموجودات ببذبات الموجات الضوئية بعينيك، وتستطيع سماع الأصوات بواسطة اهتزازات الجزيئات المادية بأطوال مختلفة من ناحية التمدجات وما تصدر عنها من أصوات، بواسطة أذنك.

أستطيع تمييز الأصوات ضمن أطوال معينة من الموجات تتراوح بين ٢٠-٢٠٠٠ هيرتز. وأعجز عن تمييز الأصوات التي تقل أو تزيد عن هذه الحدود. والحقيقة أن هذا العجز يعد رحمة بالنسبة لي، وبالنسبة لك

إن العين التي هي من أهم الأعضاء المودعة في رأسك عندما قامت - في العدد السابق - بشرح تركيبها وخلقتها المعجز، وكيف أنها هدية كبيرة أهديت لك، وألها أضاعت عالمك.. شعرت بالغبطة من جهة، وبنفاد الصبر من جهة أخرى، وقلت في نفسي: "مضى سبائي دوري لكي أشرح نفسي، وكيف أنني ترجمان ربي ﷻ".

وقد تسائل: "لماذا فقد صبرك؟". فأقول: لأنني منذ سنوات أحاول أن أشرح مدى دقة جميع أجزائي وروعيتها التي لا ترى منها سوى قطعتين من اللحم على جانبي رأسك، وهما من أروع وسائط جمع الصوت.. أنا في شوق لأشرح مدى التناسق والتنظيم بين جميع أجزائي لكي أوفر لك الاستفادة من سماع بعض الأصوات المترددة في الكون، ولأفتح لروحك منافذ جديدة، ولكي أدلك على صاحب الخلق والقدرة التي ليس لها حدود. وبما أنني مخلوق بنفس الدرجة من دقة العين وروعيتها، فلماذا أبقى إذن دون مستوى العين؟!

الدنيا بدوني دنيا صامتة

يسود كل فنان أن يعرض فنه أمام العيون التي تقدر الفن، والخالق سبحانه يريك آيات فنه الرفيع المتحللة في كل شيء من الذرات



واسع نوعاً ما، ومع ذلك فقد ينسد جزئياً من جراء التراكم الكبير للإفراز الدهني للأذن، مما يؤدي إلى فقدان وظيفي لقابلية السمع عندي.

بعد صيوان الأذن والطريق الخارجي لي (للأذن) تأتي إلى الأذن الداخلية التي تبدأ ببطلة الأذن (C) التي ترتبط بها عظمة المطرقة (Malleus=E) وعظمة السندان (Incus=E)، وعظمة الركاب (Stapes=F). ترتبط هذه العظام الصغيرة ببعضها بزاوية حساسة قدرها ١٠٥ درجة، لذا فهي تستطيع تكبير أصغر اهتزاز صوتي، وتقويه وتنقله إلى الأذن الداخلية. وتصل قناة "أوزناكي" الدقيقة (G) الموجودة في فراغ الأذن الوسطى بفراغ البلعوم "Pharynx". وإذا أردت ألا تنفجر طبلة الأذن بالأصوات المرتفعة جداً والنفجيرات الكبيرة فأننا أوصيك بفتح فمك، فهذه الوسيلة تعادل الأمواج الصوتية الداخلة عن طريق فمك مع الأمواج الصوتية المارة من خلال فمك فلا تنفجر طبلة الأذن.

ونظراً لكون أجزاء الأذن الداخلية -التي تأتي بعد الأذن الوسطى- أجزاء حساسة جداً فقد حُفِظَتْ وصُنيت بعظام حمجمة الرأس. إن منطقة الأذن الداخلية منطقة تتجلى فيها آية فنّ دقيق من الصنعة والخلق. وهي تحتوي على عضوين خارجيين لا قِطَين، لذا فهما محفوظان معاً في منطقة صغيرة جداً داخل عظمة الصدغ. ومع كون مهمة كل منهما تختلف عن الآخر فهما موجودان معاً؛ أحدهما على شكل قوقعة (H) تدعى "قوقعة الأذن" (cochlea) مهمتها التقاط الأصوات. والآخر عضو التوازن الذي يَحْفَظ توازنك فلا تترنح ذات اليمين وذات الشمال وهو عبارة عن "القناة شبه الدائرية" (Semicircular canal=I) والجريب (sacculus=J) والوسيط أو قُرْبَةِ الأذن (Utriculus=K). بُنِيَتْ هذه الأعضاء مصنوعة ككل بشكل فني رائع وكأنها قطعة واحدة منحوتة من المرمر، أو كأنها قطعة واحدة من معدن صلب في قالب. وهناك حاجز عظمي يقسم عرضياً هذه القناة شبه الدائرية إلى قسمين. يرتبط الفراغ العلوي منها بالنافذة البيضوية التي تفصل الأذن الوسطى عن الأذن الداخلية. أما القسم السفلي فمرتبط بالنافذة الدائرية. ونحن نسمي القسم الموجود من

أيضاً. ولو لم يُخلَقْ ربي -وهو خالق كل شيء في الكون- هكذا، أي لو لم يُعْمَلْ قابليّتي في السمع محصورة ضمن حدود معينة، لما دُفِئَ لا أنا ولا أنت طعم الراحة؛ لأننا كنا آنذاك نسمع أصوات جميع الأشياء وبصورة مستمرة لا راحة فيها.. من صوت دبيب النمل، إلى صوت أنين حشرة وهي تضع بيضها، إلى أزيز النحل في مساكنها، إلى أصوات أحثنة الطيور الطائرة في السماء... الخ. لذا كانت قدرتي المعيرة المخسوبة حسب حاجتك في الدنيا رحمة مهداة إليك. والحقيقة أن خالقي الرحيم يعطي لكل مخلوق ما يناسبه ويقدر معلوم ومحسوب وملامح.. فلا عبث عنده. وإياك أن تحسد الخفاش على قوة سمعه، فالأفضل بالنسبة إليك هو أنا.

إياك أن تتحدع بمظهري الخارجي؛ فأحياناً أجمّر عندما تُخجل، وقد يقرصني والدك أو معلمك قليلاً لتنبيهك... فقد نُسِيتُ في أفضل موضع وجعلت في أفضل شكل لالنقاط الأصوات. فما تدعونه بصيوان الأذن (A) (الذي يشبه شكله مغرفة الطعام) متكون من غضاريف مرنة، لذا فهي لا تتكسر عندما تنام عليها. وليست التعرجات الموجودة في هذا القسم، ولا الشعر الموجود عند مدخله دون سبب. فصلاية هذه التعرجات الموجودة وأشكالها (وهي تختلف عند كل شخص حسب صفاته الوراثية) هي أفضل التعرجات والأشكال التي تساعد على جمع الأصوات وتوجيهها إلى الأذن الوسطى حسب شدة الأصوات والاتجاهات الصادرة منها. أما الشعيرات الموجودة في المدخل فلكي تحوّل دون دخول الحشرات والأتربة إلى الداخل. أما الطريق (B) فهو



الصوت. ولا تحس أنت  
بهذه الحوادث التي تقع  
في أجزاء الثانية، وإنما تقول  
بأنك سمعت صوتاً ما.  
ولكن هل فكرت حتى الآن  
كيف تحدث عملية السمع؟ ولو لم يخلق الله عضواً  
يقوم بالاستجابة إلى حاجتك للسمع، لما كانت لك أي  
معلومات عن الأصوات في الكون، ولا عن الموسيقى.

السائل الذي يملأ الأذن الداخلية  
بين النسيج والعظم "Perilent".  
أما القسم الموجود داخل الأنسجة  
فنسميه "Endolent". يوجد فرق  
الغشاء الذي يغطي القسم السفلي لقناة  
قوقعة الأذن (L) عضو خاص جداً. ونحن  
نطلق على هذا القسم اسم عضو كورتى (Corti).

توجد هنا خلايا حساسة للموجات الصوتية، أي الخلايا اللاقطة  
للأصوات (M) وخلايا أخرى مساعدة. ونظراً لكون ارتفاعات  
الخلايا في عضو كورتى مختلفة من موضع لآخر، فإن المواضع  
المختلفة للقوقعة تكون حساسة للأمواج الصوتية المختلفة الأطوال.  
إن الموجات الصوتية بعد أن تمر خلال عظام المطرقة والسندان  
والركاب في منطقة الأذن الوسطى، تصل من النافذة البيضية إلى  
السائل الموجود داخل قوقعة الأذن ثم إلى النسيج الذي يطن  
القسم العلوي من القوقعة (اسمه نسيج Reissner-N)، مما يؤدي  
إلى موجات في "Endolent" وتقدم هذه التموجات على طول  
النسيج حتى تصل إلى عضو كورتى. وروؤس خلايا هذا العضو  
الصغير الحساسة للصوت مبطة بشعيرات دقيقة جداً. وعند  
وصول موجة الصوت تمايل هذه الشعيرات.

وهنا تقع حادثة مهمة جداً إذ تتحول الطاقة الميكانيكية (الناجمة  
عن الاهتزازات التي تولدها تلك التموجات) إلى طاقة كهربائية.  
وتنتقل هذه التأثيرات أو التنبيهات الكهربائية إلى الدماغ عن  
طريق العصب السمعي المتصل بالدماغ لتتحول إلى إدراك  
لصوت. وتستمر الموجات الصوتية نفسها في طريقها وتدخل  
إلى "Perilent" مرة أخرى وتتسبب في انفتاح النافذة الدائرية  
(الموجودة بين الأذن الوسطى والأذن الداخلية) نحو الخارج.  
وهكذا تقل الاهتزازات الصوتية في "Perilent" وتفقد قوتها.  
طبعاً فإن سرعة حادثة السمع - التي أشرحها هنا - تكون  
بسرعة انتقال الموجات الصوتية في عظامي وأنسجتي، أما سرعتها  
(بعد أن تتحول إلى طاقة كهربائية) بين العصب السمعي والدماغ  
فهي أكبر، حيث يُقَمِّم في الدماغ ويُعطى الجواب حالاً لهذا

مهاراتي الأخرى... حفظي لتوازنك

لقد شرحتُ حتى الآن وظيفتي المتعلقة بالسمع.. والان سأحدثك  
عن وظيفة أخرى لي، لكي تدرك مدى روعة تركيبتي. أرايت  
حتى الآن بلواناً يمشي على حبل؟ أو شخصاً ماهراً يتسلق الجبال؟  
حسناً.. يمكنك تذكر شيء أسهل؛ فمثلاً تستطيع تذكر حركاتك  
وأنت راكب على دراجتك محاولاً حفظ توازنك وعدم الوقوع  
من الدراجة. فلو حدث خطأ صغير لسقط البهلوان من على  
الحبل، وسقط المتسلق للحبل إلى هاوية واد، وسقطت أنت من  
دراجتك. ومع أنك تتغير حركاتك لحفظ توازنك بشكل آلي ودون  
تفكير، فأنت لا تدري العواصف التي تحدث لديّ بسبب هذا  
الأمر! أنت لا تدري طبياً مدى الحساسية التي تملكها اللاقطة  
التي جُهزت بها لكي أوْمن لك توازنك تجاه جميع الحركات التي



## هذه الفعاليات تستوجب التأمل والشكر

فَكَرَّ يا عبد الله جميع الحركات التي قمت بها طوال عمرك. عند ذلك ستؤكد وستعترف بأن جهاز التوازن حافظ على توازنك أمام جميع هذه الحركات، كما أمّن لك جهاز السمع (عضو كورتى) سماع آلاف الأنواع من الأصوات في الدنيا طوال عمرك دون سأم ولا انقطاع ولا ملل. وعلاوة على هذا فلم نطلب منك أي أجر لقاء هذه الخدمات، كما لم يطلب منك ريك عندما خلقتك ووهبنا لك وجعل مكاننا في رأسك وربطنا بالمركز الخاص للسمع والتوازن في الدماغ.. لم يطلب منك أي أجر بل طلب التفكير فقط في هذه النعم والشكر عليها.

تستطيع أن تجد في المستشفيات العديد من لوحات العبر لكي تفكر وتشكر، ولا سيما فهناك مرض التهاب الأذن الوسطى (otitis media) يصيب الأطفال عادة، وينشأ من التصاق الجزء السفلي من عظمة الركاب بالنافذة البيضية مما يمنع انتقال الأصوات بشكل جيد فيتولد عنه مرض "otosclerosis" الذي ينتج من التصاق عظام الأذن الداخلية بعضها ببعض مما يؤدي إلى عدم قيام هذه الأعضاء بوظائفها.

عندما تخطو أي خطوة أو عندما تتحرك أي حركة في يقظتك أو في منامك، وعندما تسمع زقزقة أي عصفور أو لحنا حلوا، أو عندما تسمع صوت أمك أو أهلك ستدرك مدى عظمت خالقك وعظمت النعمة التي أهداها لك هذا الخالق الرحيم الذي نقش معاني هذه الأصوات في دماغك.

يا عبد الله! لقد استعملتني حتى الآن لسماع الآخرين فقط. أما الآن فقد قمتُ بتقديم نفسي إليك وتعريفك بي. ولم أستطع سوى تعريف ١٪ فقط من تشريح بني الذي هي آية في الفن والدقة. ولو قمتُ بتعريف جميع الدقائق والخصائص بكل حكمها الرائعة -بعد التقدم العلمي والطبي الحالي- لما وسعت صفحات المجلة التي تقرأها بين يديك. كما أنك لا تحتاج في الحقيقة إلى كل تلك المعلومات. المهم هو جلب انتباهك لي لكي تقرب أكثر من خالقك. أرجو أن يتحقق هذا إن شاء الله... واعلم بأنني سأقوم من حين لآخر بتذكيرك في عندما تسمع رنة في أذنك لكي أصونك من الغفلة. ■

٢٩ جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: أورهان محمد علي.

تأتيك من حواليك ضمن أقل من ثانية. فهذه اللاقطات الحساسة تحس بأقل حركة لك وتقوم -بواسطة النخاع الشوكي- بإرسال الخبر إلى دماغك لتغيير جسدك حسب الوضع الأخير.

قد تقول: "ولكن كيف يمكن إجراء وظيفتين في الوقت نفسه؛ وظيفة السمع ووظيفة حفظ التوازن في الأذن الداخلية الصغيرة الحجم؟!". هذه هي القدرة اللانهائية الخالقي الذي خلق خلايا حساسة لا ترى بالعين المجردة، بل بالميكروسكوبات.. وحشها في مكان ضيق، وأعطى هذه الخلايا العاجزة مثل هذه القابليات المدهشة. يا عبد الله! كيف تتلقى الإحساس بالتوازن، وكيف تعطي ردود الفعل عليه؟ للجواب على هذا السؤال يجب عليك إلقاء نظرة فاحصة على التركيب التشريحي لبنية بعض الأعضاء. هناك انتفاخات صغيرة على شكل مصابيح فوق القسم السفلي للقنوات شبه الدائرية باتجاه الجريبات والسوطيات.. هناك ثلاث شبه دوائر متصلة بعضها ببعض براويزة قدرها ٩٠ درجة تمثل الأبعاد الفضائية الثلاثة. هناك لاقطات حساسة من الشعيرات بأعداد قليلة في داخل القنوات شبه الدائرية، وبأعداد كثيفة داخل المصابيح، وهي تتحرك وتتمايل حسب الحركات، ولها قابلية مرونة كبيرة. لاقطات التوازن في الجريبات والسوطيات مغطاة بنسيج رقيق، ويوجد داخلها سائل جيلاتيني وجزيئات من حجر الكلس (Cupula terminalis). أما سائل "Endolinf" الموجود داخل القنوات شبه الدائرية فيتحرك -حسب كثافته- بعكس اتجاه حركة رأسك. وهذا ينبه حركة الركاب إلى الورا داخل واسطة نقل تبدأ الحركة بسرعة. وهكذا فحركة ذلك السائل تكون باتجاه معاكس للحركة العامة للجسم؛ فمثلا عندما تميل واسطة النقل أو العربة إلى اليمين تتجه حركة المسافرين نحو اليسار، وإذا وقفت العربة فجأة اندفع المسافرون إلى الأمام. وكل حركة من هذه الحركات تؤدي إلى حركة السائل الموجود في القنوات شبه الدائرية. وذلك تبعا لمقدار السرعة ومقدار التعجيل. ونتيجة حركة سائل "Endolinf" تتغير أماكن السائل الجيلاتيني وجزيئات الكلس الموجودة فيه، فتتحني الشعيرات الدقيقة الموجودة فوق الخلايا اللاقطة. فأى حركة للرأس تقوم بتنبية الخلايا الموجودة في أماكن مختلفة وتقوم -بواسطة عصب التوازن (nervus vestibularis) في كل حين بإعطاء معلومات حول جميع التغيرات الحاصلة في التوازن.



أ. د. بركات محمد مراد

## ابن سينا الفيلسوف التجريبي والحلل النفسي الإكلينيكي

١

أن يفسر كل ما في الكون بدءًا من أبسط أشكال الفيزيقي (الطبيعي) وانتهاء بأرقى درجات الميتافيزيقي (الماورائي)، إلا أن اهتمامات ابن سينا التجريبية والعلمية قد طغت على أبحاثه في هاتين الموسوعتين بجانب اهتماماته الفلسفية والنظرية.

فقد جمع ابن سينا في موسوعته بين عمق تفكير الباحث العقلي، وبين دراية العالم الممارس للتجربة، حيث ضمنهما العديد من الملاحظات والاكتشافات العلمية والتجريبية القيمة التي ظل صداها مترددا طيلة العصور الوسطى، وحتى بداية العصور الحديثة، مما يدفع الباحث إلى محاولة تلمس منهجي تجريبي يعلن عن نفسه في مختلف مؤلفاته ووسائله، ويكشف عن عمقه بوضوح حين يتناول موضوعات طبيعية، وعلومًا مادية مثل علم النبات وعلم الحيوان، والجغرافيا والفيزياء، وهو ما يطلق عليه الآن "العلوم الفيزيائية والكيميائية"، وكذلك العلوم النفسية حين تعالج بأساليب تجريبية وإكلينيكية (سريرية). هذا فضلا عن علمي الطب والصيدلة، حين يوجه الانتباه العلمي فيها إلى الملاحظة الإكلينيكية، أو يؤسس فيهما لنظرية علمية تشمل جانبي الطب العلاجي والوقائي أو يخطط لتحقيق تجريبي موسع في الصيدلة العربية. ويتمثل المنهج العلمي التجريبي عند ابن سينا خير ما يتمثل في علم الطب، سواء كان علاجيا أو وقائيا أو صيدلة، بل وحتى طبًا نفسيًا. ويتمثل هذا التطبيق خير تمثيل في كتابه "القانون في

إذا كان الشيخ الرئيس ابن سينا (٣٧٠هـ - ٤٢٨هـ) قد عُرف واشتهر بكونه فيلسوفًا مشائيا، وحكيما أرسطيا، تأثر بالفكر اليوناني عامة والفيلسوف أرسطو خاصة، في جوانب من فلسفته الطبيعية والميتافيزيقية، كما تابع أفلاطون في بعض اهتماماته الفلسفية النظرية وبعض تعريفاته النفسية، فإننا ومطالعة مؤلفاته نكتشف له جوانب علمية تجريبية يتميز بها عن هذين الفيلسوفين، ويتحقق فيها نوعا من الاستقلال الفلسفي عن الفكر اليوناني في روحه وجوهره، خاصة حين يعالج بالدراسة العميقة موضوعات تتصل بالعلوم الطبيعية مثل الطب، فنجد أنه يؤسس لمنهج تجريبي علمي يسري في مختلف تلك العلوم التي يتناولها، وينبث هذا المنهج في تضاعيف تلك المؤلفات التي يضعها.

ومن هنا فليس من قبيل المصادفة أن يظل لموسوعي "القانون في الطب" و"الشفاء" الدور العلمي الحاسم طيلة القرون الوسطى، وخاصة إذا علمنا أن كتابه "القانون" يترجم إلى اللاتينية عدة مرات ويوضع عليه ككثير من الشروح والتحليلات من قبل كبار العلماء، خاصة الطبيعيين منهم، ويعتمد مصدرا رئيسيا للمعارف الطبيعية، بل وموسوعة مؤنثة لكل العلوم الطبيعية طيلة قرون كثيرة، وكذلك تتداول مختلف المكتبات والجامعات كتابه "الشفاء" كموسوعة فلسفية وعلمية معا يحاول صاحبها

الطب" الذي ظل المرجع الأساسي للطب في معظم جامعات أوروبا حتى أوائل القرن السابع عشر، وهو القرن الذي اتسم بالاهتمام بعلم المناهج، على اعتبار أن الخطورة الحادة في تكوين المنهج العلمي تمت على يد "فرنسيس بيكون".

وإن سينا يقسم كتابه "القانون" إلى أبواب تشبه الكتب الطبية الحديثة؛ فهو يبدأ بالتشريح ويبنى بعلم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا)، ويعقب ذلك بما نسميه بالباطولوجيا (علم طبائع الأمراض) وأخيرا بعلم العلاج. وإن كان يأخذ عليه "ديلاسي أوليري" المستشرق الإنجليزي كثرة التقسيمات والتفريعات التي هو مولع بها.<sup>(١)</sup>

ومن يتصفح كتاب القانون يجد الشيخ الرئيس - وهو الطبيب البارع - قد اهتم بكل فروع الطب تقريبا بدءاً من الطب الوقائي وعلم التشريح، وانتهاء بالصيدلة وتركيب الأدوية والعقاقير (الأفارماكولوجي). وقد سار ابن سينا في تشخيص المرض ومعالجته على الطريقة المتبعة الآن وهي الاستدلال بالبول والبراز والنبض، فأمكنه التوصل بذلك إلى وصف وتشخيص كثير من الأمراض، فكان أول من وصف التهاب السحايا، وأول من فرق بين الشلل الناتج عن سبب داخلي في الدماغ والناتج عن سبب خارجي، ووصف السكتة الدماغية الناتجة عن كثرة الدم (الجلطة)، فخالف بذلك الوصف اليوناني السائد آنذاك.

وأولى ابن سينا اهتماماً بالعلماء معرفة تقل المرض من واحد إلى آخر أو ما نسميه الآن بالعنوى كما يقول "وليم أوسلر" في كتابه "تاريخ الطب". فضلاً عن معرفته لكثير من الأمراض التي كانت منتشرة في زمنه مثل شلل الوجه، وداء الخنث، ومرض الأنكلستوما، ومرض السل الرئوي، وكثير من الأمراض الجلدية والتناسلية التي لم يعرفها القدماء بدقة بالغة كما شخصها ابن سينا.<sup>(٢)</sup> وكان أول من وصف داء الفيلاريا وسيرانيه في الجسم وإلى وصف الحمرة الحثيئة التي سماها النار المقدسة، وسبق "علي بن ربان الطبري" (٨٥٠ م) إلى الكشف عن الحشرة التي تسبب داء الجرب، وسبق "ابن ماسويه" إلى وصف الجذام.<sup>(٣)</sup>

### ابن سينا والطب النفسي

ولن نناقش ابن سينا في طيه التحريسي ولا في أبواب الصيدلة العلمية التي شرحها في كتابه، فهذا يحتاج إلى بحث كبير آخر، ولكننا نتوقف هنا عند نوع واحد من أنواع الطب التي عرض لها

ابن سينا في مؤلفه الضخم هو الطب النفسي الذي برع فيه أيضاً وسبق كثيرا من المخلين النفسيين المحدثين.

على الرغم من متابعة ابن سينا لأرسطو في بعض جوانب معالجته للنفس من حيث تعريفها "بأنها كمال أول لجسم طبيعي آلي" أو تقسيمه لقوى النفس أو وظائفها كنفس نباتية أو حيوانية، وناطقة، وتقسيمه لوظائف العقل إلى عقل عملي وآخر نظري، وكذلك تقسيمه للقوى النفسانية المدركة وغيرها من الموضوعات التي تخص النفس الإنسانية، إلا أننا نجد له ميمزاً عن فكر أرسطو الفلسفي والنفسي في كل الموضوعات السابقة بشكل أو بآخر، ويزداد هذا التميز في بعض الموضوعات خاصة تلك التي نعى فيها منحى علمياً تحريبي في معالجته للنفس وتناول لقواها ووظائفها وخصائصها، وفي توظيفه لبعض الحقائق والمناهج العلمية في العلاج النفسي؛ فقد استطاع بحذو ذكائه، ودقة ملاحظته أن يصل إلى معرفة طبيعة عملية "الارتباط الشرطي" = "Conditioning" قبل أن يكتشفها "بافلوف" الفسيولوجي الروسي في العصر الحديث، نتيجة للبحوث التجريبية التي قام بها، وهو تفسير لم يصل إليه علماء النفس المحدثين إلا في أوائل القرن العشرين.

كما استطاع ابن سينا قياس الانفعال على أساس قياس التغيرات الفسيولوجية التي تحدث مصاحبة للانفعال، قبل علماء الفسيولوجيا المحدثون، وهذا ما ستبينه في علاجه لأحد مرضاه من "حالة عشق" شديد، وهو نفس الأساس العلمي الذي يستخدم في جهاز كشف الكذب، وهي نفس الطريقة العلمية التي يتبعها المعالجون النفسيون المعاصرون.

كما وصل ابن سينا في دراسته للأحلام إلى كثير من الحقائق التي سبق لها العلماء المحدثين، وبخاصة دور الأحلام في إشباع الدوافع والرغبات التي سيقول بها "سيجموند فرويد" في نهاية القرن التاسع عشر. ولذلك ليس غريباً أن يُعتبر ابن سينا طبيباً نفسانياً من الطراز الأول، لا يقل في براعته واشتغاره عن براعته في فروع الطب الأخرى، من العلاجي أو الوقائي أو الصيدلي.<sup>(٤)</sup>

لقد اتخذ ابن سينا التحليل النفسي أسلوباً حديثاً من أساليب العلاج الطلي، وقد مارسه ممارسة ناجحة أكسبته شهرة واسعة في عصره، وتدل أساليبه في ذلك على أنه كان على درجة كبيرة من الخبرة بعلم النفس، وهو قد ربط في فلسفته وخاصة في كتابه القانون بين الطب وعلم النفس، فاستغل علم النفس وهو جزء من الفلسفة آنذاك في التطبيق.



وعلماء النفس المحدثون، فسُجد أنه قد عرف التكيف الحسي وظاهرة الحجب، فهو يذهب إلى أن الحسوس الخارجي أي (المؤثر الحسي) التشديد أو المتكرر يحدث في أعضاء الحواس الخارجية أثرًا يستمر بعض الوقت يصعب معه أن تحس بشيء آخر. ويصف ابن سينا ظاهرة سيكولوجية تناولتها الدراسات الفسيولوجية والسيكولوجية الحديثة، وهي "ظاهرة الحجب = Masking" ويلاحظ أن أرسطو قد أشار أيضًا -دون توسع- إلى هذه الظاهرة.

### تفسير الأحلام سيكولوجيا

وأشار ابن سينا إلى بعض الأسباب الهامة في حدوث الأحلام، والتي تناولها علماء النفس المحدثون فيما بعد بالدراسة، ووصلوا فيها إلى نتائج هامة تؤيد ما سبق أن قال بها من قبل ابن سينا، فقد ذكر أن بعض الأحلام تحدث نتيجة لتأثير بعض المؤثرات الحسية التي تقع على النائم، سواء كانت هذه المؤثرات الحسية صادرة من الخارج أو من داخل البدن.<sup>(٦)</sup>

وقد دلت البحوث التجريبية الحديثة على صحة ما ذهب إليه ابن سينا من أن للمؤثرات الحسية التي تقع على النائم تأثيرا في حدوث الأحلام، وأكد كل من "موري" و"هرفي دي سان دينيس" و"نيجاند" على أن للإحساسات الخارجية تأثيرا في الأحلام، فمثلا قد يعلم النائم الذي يشعل بجانبه ضوء أنه يشاهد احتراق شيء ما.

وقد أشار ابن سينا أيضا إلى دور الأحلام في إشباع الدوافع والرغبات؛ فإذا كان مزاج البدن في حالة ما من شأنها أن تحدث نزوعا إلى شيء ما، قامت المخيلة بمحاكاة الأفعال التي من شأنها أن تشبع هذا الدافع. يقول ابن سينا: "مثل ما يكون عندما تتحرك القوى الدافعة للمني إلى الدفع إلى المخيلة تحاكي صورا من شأن النفس أن تميل إلى مجامعتها، ومن كان به جوع حكيت له ماكولات...".<sup>(٧)</sup> وبذلك يكون ابن سينا قد سبق "فرويد" في تفسير بعض الأحلام بأنها إشباع للدوافع والرغبات.

وقد أشار ابن سينا في دراسته للأحلام إلى ظاهرة طبية هامة، وهي أن بعض الأحلام ينشأ عن بعض التغيرات في مزاج البدن، أو عن بعض الإحساسات البدنية الداخلية التي يمكن أن يستدل منها على حالات مرضية أو علسي بداية ظهور حالات مرضية خاصة مستظهر في المستقبل.<sup>(٨)</sup> وقد اهتم بعض الباحثين بدراسة

والتحليل النفسي لم يكن غريبا على ابن سينا، فقد كان على علم به، إذ اتخذ طريقة من طرق العلاج حتى اشتهر في عصره بقدرته العظيمة على معالجة المرضى بطريقة التحليل النفسي.

فقد أصيب في يوم ما رجل بمرض "الناحوليا"،<sup>(٩)</sup> وقد استبد به المرض إلى درجة جعلته يعتقد أنه أصبح بقرة، ولذلك امتنع عن الطعام والشراب مع بني الإنسان، ونتيجة لذلك أخذ الرجل يقلد الأبقار فيخور مثلهم ويذهب إلى الإقامة في حظائرها ويتناول الأكل معها ويصرخ مطالباً بذبحه وإطعام لحمه للناس، استمر الرجل على هذا النحو زمنا حتى ضعفت قواه وهزل جسمه وشحب لونه، فعرضه ذووه على الأطباء، ولكنهم عجزوا عن علاجه. وكان ابن سينا آنذ قد طار مبتنه في الأفاق، وعرف بتطبيب مرضى العقول، فلما عرض عليه هذا الرجل وفحص عن حاله قال له: ما بالك أيها الرجل؟ وما الذي حلّ بك؟

فقال المريض ليس بي شيء إلا أنني أصبحت بقرة نخور، أكل ما تأكل وأفعل ما تفعل. فأمر ابن سينا بتقييد المريض بحبل متين وألقاه على الأرض وأحضر سكيناً حاداً، ثم تقدم إلى المريض وأراد أن يهوي بالسكين على رقبته، ولكنه عندما قرب السكين من غرجه، قال: "ما بال هذه البقرة هزيلة ضعيفة، إنها لا تصلح للذبح". فقال المريض: "إنها تصلح للذبح فأذبح"، فقال ابن سينا: "كلا لا نذبحها حتى تمتلئ شحما ولحما". قال المريض: "وماذا أفعل حتى أصير كذلك؟" فقال ابن سينا: "تأكل وتشرب كما يأكل الناس ويشربون". فقال المريض "أو تذبحني بعد ذلك؟" قال ابن سينا: "نعم". ثم أخذ الرجل على نفسه عهداً وميثاقاً ليفعلن ذلك، وأخذ يأكل ويشرب كما يفعل الناس وكان ابن سينا يدس له فيه الدواء، وبذلك ارتد إليه عقله وزايله المرض وشُفي تماماً. ثم زار ابن سينا بعد ذلك فلما رآه سليم الجسم والعقل قال له مداعبا: ما بال البقرة قد سمت؟ قال: نعم، وقد أصبحت عاقلة. ولذلك يقول "قادري حافظ طوقان" في كتابه "تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك": "درس ابن سينا الاضطرابات العصبية وعرف بعض الحقائق النفسية والمرضية عن طريق التحليل النفسي، وكان ابن سينا يرى أن للعوامل النفسية والعقلية - كالخوف والقلق والفرح وغيرها- تأثيرا كبيرا على أعضاء الجسم ووظائفه، ولهذا لجأ إلى الأساليب النفسية في معالجته لمرضاه". فإذا أردنا أن نتبين تلك الظواهر النفسية التي عالجها ابن سينا وتوصل فيها إلى حقائق وقوانين تشبه تلك التي وصل إليها



هذا الموضوع، ويثبت وجود أدلة كثيرة على علاقة الأحلام بالأمراض ودلائها عليها.<sup>(١٢)</sup>

### التذكر والكف الرجعي

يفرق ابن سينا حين يتحدث عن "الحافظة الذاكرة" بين مفهومي الذكر والتذكر؛ فالذكر هو الاستعادة التلقائية لكل من الصور والمعاني، وهو يحدث في كل من الحيوان والإنسان. أما التذكر فهو الاستعادة الإرادية للصور والمعاني، وهو خاص بالإنسان وحده. وقد أشار ابن سينا إلى وجود فروق كبيرة بين الناس في قوة الذاكرة والتذكر، كما ناقش أسباب النسيان واستطاع بدقة ملاحظته أن يصل إلى تفسير علمي لم يصل إليه علماء النفس المحدثون إلا في القرن العشرين؛ فقد كانوا يفسرون النسيان بأنه راجع إلى زوال الآثار التي يتركها التعلم السابق نتيجة عدم الاستعمال. واستمر هذا التفسير شائعاً مدة طويلة حتى قام "جينكنز" (Jenkins) و"دلباخ" (Dallenbach) في عام ١٩٢٤م بدراسة تجريبية<sup>(١٣)</sup> أثبتت أن النسيان لا يحدث بسبب مجرد مضي الزمن بدون استعمال للمعلومات، وإنما يحدث بسبب كثرة نشاط الإنسان وانشغاله بأمر كثيرة تؤدي إلى تداخل معلوماته الجديدة وتعارضها مع معلومات سابقة. وسميت هذه الظاهرة بالتداخل الرجعي (Retroactive Interference) والكف الرجعي (Retroactive Inhibition). وبينت بعض الدراسات التجريبية الحديثة أن النسيان قد يحدث أيضاً نتيجة تداخل المعلومات السابقة مع المعلومات الحديثة، وسميت هذه الظاهرة بالتداخل اللاحق (Proactive Interference)، وقد سبق ابن سينا علماء النفس المحدثين في تفسير النسيان بسبب تداخل المعلومات، يقول ابن سينا في هذا الصدد: "وأكثر من يكون حافظاً هو الذي لا تكثر حركاته، ولا تنفثن هممه، ومن كان كثير الحركات لم يتذكر جيداً... ولذلك كان الصبيان مع رطوبتهم يحفظون جيداً، لأن نفوسهم غير مشغولة بما تشغل به نفوس البالغين، فلا تذهل عما هي مقبلة عليه بغيرة."<sup>(١٤)</sup>

### الانفعالات والتغيرات الفسيولوجية

يذهب ابن سينا إلى وجود علاقة وثيقة بين النفس والبدن؛ فالتغيرات في الحالات النفسانية التي تحدث في حالات الانفعال مثلاً، يصاحبها أو يتبعها تغيرات في الحالة البدنية، يقول ابن سينا: "جميع العوارض النفسانية يتبعها أو يصاحبها الروح، إما إلى خارج وإما

إلى داخل.. والحركة إلى خارج إما دفعة كما عند الغضب، وإما أولاً فأولاً كما عند اللذة وعند الفرح المعتدل، والحركة إلى داخل إما دفعة كما عند الفزع، وإما أولاً فأولاً كما عند الخزن."<sup>(١٥)</sup>

ويعني ابن سينا بحركات الروح وحركات الدم، ويشير هنا إلى ما أثبتته البحوث الحديثة من أن الانفعال تصاحبه تغيرات فسيولوجية كثيرة، من أهمها ما حدث من تغيرات في الدورة الدموية إذ تزداد سرعة وشدة خفقان القلب، وينتج عن ذلك زيادة كمية الدم التي يرسلها القلب إلى أجزاء البدن، وتقبض الأوعية الدموية الموجودة في الأحشاء، وتتسع الأوعية الدموية الموجودة في الجلد والأطراف، ولذلك يشعر الإنسان عند الغضب بالحرارة تتدفق في وجهه وبدنه ويحمر وجهه.

ويلاحظ كذلك أن الإنسان في حالة الفزع الشديد يصفر وجهه بسبب حركة دمه إلى الداخل، وهذا ما عثر عنه ابن سينا بقوله: "والحركة إلى داخل إما دفعة كما عند الفزع.. وإن عبارة ابن سينا "إن جميع العوارض النفسانية يتبعها أو يصاحبها حركات الروح" أشار فيها إلى مشكلة شغلت علماء الفسيولوجيا وعلماء النفس المحدثين، وهي: هل الشعور بالانفعال والتغيرات الفسيولوجية المصاحبة له، يحدثان معاً في نفس الوقت، أم إن أحدهما يسبق الآخر؟ فقد ذهب كل من "كانون" (Cannon) و"بارد" (Bard) في العصر الحديث إلى أن الشعور بالانفعال يحدث في نفس الوقت الذي يحدث فيه التغيرات الفسيولوجية والعضلية.<sup>(١٦)</sup> وقد أبدى ابن سينا رأيه في هذه المشكلة قبل أن تثار في العصر الحديث، وقال في الإجابة عليها باحتمالين: أحدهما هو أن الانفعال يحدث مصاحباً للتغيرات الفسيولوجية، وهو ما قال به كل من كانون وبارد؛ والثاني أن الانفعال يحدث أولاً، ثم يتبعه التغيرات الفسيولوجية، فلا يقول به أحد من علماء الفسيولوجيا والنفس المحدثين.

وقد استفاد ابن سينا بما يحدث من تغير في سرعة وشدة النبض أثناء الانفعال في علاج شخص مصاب بحالة عشق شديد. وقد أراد ابن سينا أولاً أن يعرف الفتاة التي يعشقها هذا الشخص حتى يتمكن بعد ذلك أن يتخذ خطوات عملية في علاجه من عشقه. وقد ابتكر طريقة لتحقيق غرضه. فكان يضع إصبعه على نبض هذا الشخص، ويأمر أحد الرجال أن يذكر أسماء البيوت وساكنيها بجوار بيت الشاب، وكان يلاحظ ما يحدث من تغيرات في سرعة وشدة النبض عندما سمع هذه الأسماء، واستطاع هذه





عبيد الجوز جاني عنه، وكما يقرّر ابن سينا - ونتيجة للملاحظات السريرية - حين يقول: "وتعهدت المرضي فافتتح عليّ من أبواب المعالجات المتبينة من التجربة ما لا يوصف".<sup>(١٦)</sup>

وتعتبر معالجة ابن سينا أو اكتشافه حالة العشق الشديد السابقة نوعاً من تحقيق الفرض العلمي، وذلك في قوله: "وتكون اليد على نبضه إذا اختلف بذلك اختلافاً عظيماً وصار شبه المنقطع ثم عاود. وجربت ذلك مراراً، علمت أنه اسم المعشوق".<sup>(١٧)</sup> فالتجربة هنا للتحقق من صحة الفروض التي كان يفترضها ابن سينا من تغير حالة النبض في حالة المريض بالعشق. أي إنه كان يجري التجربة أكثر من مرة، فإذا توفّرت نفس الأعراض حزم بالعلّة لصحة التشخيص.

ومن هنا يتبين لنا كيف جمع ابن سينا بين نظرة العالم الطبيعي المدقق، ورؤية الفيلسوف الشاملة والعميقة، فكان منهجه العلمي يستند إلى دعائم فلسفية تشترك في تكوين كلٍّ من النظرة العقلية والمنطقية، والرؤية الحسية التجريبية؛ تشكل عند جمعها وتآلفهما معلّمين رئيسيين لمنهجه وهما المعلم الاستقرائي التجريبي بجميع أبعاده، والمعلم الاستنباطي العقلي بكل ارتساماته. ■

(١٦) رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر. افهامش

(١٧) O'Leary (Delacy): Arabic Through and its place in history, London 1972, p. 173.

(١٨) د. علي عبد الله الدغاع، إسهام علماء العرب والمسلمين في الكيمياء، بيروت ١٩٨٨م، ص ٢٤٠، ٢٤٢.

(١٩) د. توفيق الطويل، في تراثنا العربي والإسلامي، عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٨م، ص ١٠٥.

(٢٠) أبو الفتح الترانسي، من أعلام الطب العربي، الدار القومية للطباعة، مصر ١٩٦٦م، ص ١١٩.

(٢١) أبو الفتح الترانسي، من أعلام الطب العربي، ص ١٢٠.

(٢٢) انظر: الشفاء لابن سينا، ص ١٥٩.

(٢٣) الشفاء لابن سينا، ص ١٥٩.

(٢٤) القانون لابن سينا، ٦٠١/٣، ٢٨٤.

(٢٥) N. Vasschide et M. Pieron la psychologie du reve on point du vue pairs Medicale, p.9.

(٢٦) Jenkins J. Garnd Dallenbach, M. Obliviscence during sleep and waking American Journal of psychology 1942.

(٢٧) الشفاء لابن سينا، ص ١٦٥، ١٦٦.

(٢٨) القانون لابن سينا، ٩٤/١، ٩٥.

(٢٩) د. محمد عثمان، محال علم النفس والحياة، الكويت ١٩٩٢م، ص ١١٨.

(٣٠) القانون لابن سينا، ٧١/٢، ٧٢.

(٣١) القانون لابن سينا، ٣١٦/٢.

(٣٢) القانون لابن سينا، ٣/٢.

(٣٣) القانون لابن سينا، ٧٢/٢.

الطريقة أن يصل إلى معرفة الفتاة التي يعشقها هذا الشخص.<sup>(١٤)</sup> وقد صنف ابن سينا "حالة العشق" السابقة مع أمراض عقلية والنسبات والأرق والنسيان، وذكر أن من أعراض العشق عدم انتظام النبض وأكد على أنه "أصبح من الممكن التوصل إلى معرفة المعشوق إذا أصر أحد العاشقين على عدم الكشف عنه، وهذا الكشف هو إحدى طرق العلاج".

ويؤكد ابن سينا على جدوى هذه الطريقة التجريبية التي كررها كثيراً وحققت نجاحاً حين يقول: "استعملت هذه الطريقة مراراً وتكراراً، واكتشفت بذلك اسم المعشوق، عند ذكر أسماء المدن والشوارع والصفة في الوقت الذي يحس فيه النبض، فإن التغير يدل على العلاقة بين المكان والصفة والمعشوق. وبذلك يمكن معرفة جملة أوصافه"، وبمضي ابن سينا قاتلاً: "جرّبنا ذلك بأنفسنا وتوصلنا لمعرفة معلومات مفيدة".<sup>(١٥)</sup>

ومن هنا يؤكد الدكتور محمد عثمان نجدي على أن ابن سينا قد سبق المخلّين النفسانيين وعلماء النفس في العصر الحديث في الاستعانة بالتغيرات الفسيولوجية التي تطرأ على الإنسان لمعرفة ما يصيبه من اضطرابات انفعالية. وقد استخدم بعض المخلّين النفسانيين الطريقة التي استخدمها ابن سينا وهي النطق بكلمات معينة، وملاحظة ما تحدثه هذه الكلمات من اضطراب انفعالي في الفرد، والاستدلال من ذلك على المشكلة النفسية التي يعاني منها الفرد.

وفضلاً عن ذلك فإن ابن سينا بطريقته - الطريقة التي قاس بها التغيرات التي تحدث في سرعة النبض - قد سبق علماء الفسيولوجيا الذين يستعملون الآن بأجهزة دقيقة لقياس التغيرات الفسيولوجية المصاحبة للاضطراب الانفعالي، وهي أجهزة حساسة دقيقة لقياس مقاومة الجلد للتيارات الكهربائية الضعيفة التي تحدث أثناء الانفعال (استجابة الجلد الجلفانية = Galvanic Skin response) ويطلق عليها "أجهزة كشف الكذب" بسبب كثرة استخدامها في التحقيقات الجنائية.

وقد قام ابن سينا أيضاً بعلاج بعض حالات الاضطرابات العقلية، وذكر في كتابه القانون بعض حالات المرض العقلي التي عالجها، يمكن تتبعها - في كتابه القانون - لمن يريد تعمق أمثال هذه الحالات الإكلينيكية.

والمهم في كل هذه المعالجات عند ابن سينا والتي سبق لها العلماء الحديثين، في قوله دائماً: "جرّبنا ذلك بأنفسنا"، إذ يختكم ابن سينا إلى التجربة لتقدير صحة فكرة من خطتها، كما نبهنا أبو



الحرية هي تحرر الفكر الإنساني من كل قيد يمنعه  
من الرقي المادي والمعنوي، بشرط عدم السقوط في وهدة اللامبالاة  
أو الانفلات من الشعور بالمسؤولية.

\*\*\*



## شجاعة السلطان عبد الحميد الثاني

أورخان محمد علي

يعلم من دقائق الأمور السياسية ومرامي الدول الغربية وهو معد لكل هوة تظراً على الملك مخرجاً وسليماً. وأعظم ما أدهشني ما أعد من خفي الوسائل وأمضى العوامل كي لا تنفق أوروبا على عمل خطير في الممالك العثمانية، ويربها عياناً محسوساً أن تجزئة السلطنة العثمانية لا يمكن إلا بخراب الممالك الأوروبية بأسرها. تعرض هذا السلطان العظيم إلى العديد من الافتراءات الظلمة من قبل أعدائه؛ من أهمها أنه "كان سلطاناً ظالماً قتل العديد من خصومه"، و"كان كثير الوسواس وعلى خوف دائم على حياته وعلى عرشه، لذا قام ببيت العيون والجواسيس في طول البلاد وعرضها". وستناول في مقالنا هذا همة الجين. أما أنه بث العيون والجواسيس، فنقول لمن لم يذيق التاريخ العثماني ولا سيما في أدواره الأخيرة إن إسطنبول عاصمة الدولة العثمانية كانت تتعج آنذاك بجواسيس الدول الكبرى، وقد نجحت هذه الدول في تدبير المؤامرات والانقلابات حتى في القصر السلطاني. مثلاً استطاعت إنكلترة وفرنسا تدبير انقلاب على السلطان عبد العزيز (عم السلطان عبد الحميد). لذا كان من الطبيعي قيام السلطان عبد الحميد بتشكيل مؤسسة استخبارية تقاوم وتناضل ضد الألاعيب والمؤامرات التي كانت هذه الدول الكبرى تدبرها ضد الدولة

السلطان عبد الحميد الثاني هو السلطان الرابع والثلاثون في دولة آل عثمان. جاء إلى الحكم في ظروف صعبة جداً؛ فالدولة كانت على حافة الانهيار جراء ضعفها الداخلي اقتصادياً وعسكرياً وعلمياً، ومن جراء الخطر الخارجي الذي كان يتمثل في اجتماع الدول القوية (مثل إنكلترة وروسيا وفرنسا والنمسا) عليها، ومحاوله كل منها ابتلاع قطع من أراضيها الواسعة الممتدة على ثلاث قارات. في مثل هذه الظروف القاسية استطاع هذا السلطان المحافظة على الدولة العثمانية ثلاثاً وثلاثين سنة (١٨٧٦-١٩٠٩م) بأقل الخسائر، وحال دون انهيارها، وقام بحملة كبيرة في ساحة التعليم وبناء المدارس والكتليات. ولكن من جاء بعده من الاتحاديين فتتوا الدولة العثمانية وبغثروا أشلائها في عشر سنوات فقط.

كان عبقرياً في السياسة وفي إدارة الدولة حتى قال جمال الدين الأفغاني وهو يصف سياسة السلطان عبد الحميد: "إن السلطان عبد الحميد لو وزن مع أربعة من نوابي رجال العصر لرجحهم ذكاء ودهاء وسياسة، خصوصاً في تسخير جلسه. ولا عجب، إذ رأيتاه يذلل ما يقوم للملك من الصعاب من دول الغرب ويخرج المناوئ له من حضرة راضياً عنه وعن سيرته وسيره، مقتنعاً بحجته"، و"رأيتاه



العثمانية. هل كان المتوقع من هذا السلطان أن يترك دولته في مهب الريح طمعة للمؤامرات؟!

المُدقق لحياة السلطان عبد الحميد يتوصل إلى أن هذا السلطان كان شجاعاً رابط الجأش أمام المخاطر التي كانت تطير بألباب الرجال. أي يتوصل إلى عكس همه الجبن التي حاول أعداؤه إلصاقها به.. ويكفي أن نورد هنا حادثين تاريخيتين في هذا الصدد:

## ١-حادثة الزلزال الكبير

لننقل وصفاً لهذا الزلزال الذي سجل في التاريخ التركي تحت اسم "الزلزال الكبير" (٦ محرم ١٣٣٢هـ - ١٠/٧/١٨٩٣م) من المؤرخ التركي حامي دانفسماند، يقول: "إن هذا الزلزال الهائل الذي كان متوجهاً من الجنوب إلى الشمال والذي استمر دقيقة واحدة تقريباً - كما ذكرت جريدة "ترجمان الحقيقة" في نسختها الصادرة في اليوم الثاني للزلزال - قد أدى إلى تلف وتمزيات كبيرة، فقد تدمر كثير من الجوامع والمناشر والمدارس ومراكز الشرطة وأرصفة الموانئ والمباني الرسمية والخانات<sup>(١)</sup> والدكاكين والبيوت، كما أصبحت بنايات كثيرة معرضة لل سقوط وخطرة على الناس، لذلك فقد دهمت من قبل الحكومة. وكان معظم الذين ماتوا في هذه الحادثة هم الذين بقوا تحت الأنقاض؛ فمثلاً في منطقة الـ"سراجخانه" قُتل خمس أطفال من طلاب مدرسة ابتدائية، كما مات بعض المارة عندما سقط عليهم جدار. وكان عدد الجرحى أكثر من عدد القتلى، وقد نُقلوا مباشرة إلى المستشفيات للعلاج. وكلف السلطان فوراً -برساسة يأوَرِه- وزارة الداخلية ورئاسة البلدية ورئاسة الصحة بإبداء المعونة والمساعدة الفورية، وافتتح سجل بجمع التبرعات حيث بلغ مجموع ما جمع من التبرعات في خمسة أشهر وتسعة عشر يوماً (أي حتى ٢٩ من جمادى الآخر المصادف ليوم الجمعة ١٢/٢٨) ٨٢٨٧٤ ليرة ذهبية عثمانية، علماً بأن القسم الأعظم من هذا المبلغ دفع من قبل السلطان عبد الحميد<sup>(٢)</sup>.

ويصف شاهد آخر هذا الزلزال، وهو الشاعر التركي المعروف عبدالحق حامد، فيقول: "كنت آنذاك على باخرة "الشركة الخيرية"، وبعد أن اجتازت الباهرة "بشكاش"<sup>(٣)</sup> واقتربت من الجسر، وأبنا فجأة منظرًا غريباً كاد يفقدنا عقولنا..! كانت البيوت تهدم والسقوف تنهار والمناظر هوى وتنحطم... لم تكن ندرى ما الأمر، وأخيراً صاح أحدهم: إنه الزلزال. عند ذلك توضّحت لنا المسألة؛ كان الرلزال عنيقاً إلى درجة حسبننا أن القيامة قد قامت"<sup>(٤)</sup>.

في ذلك اليوم كان السلطان عبد الحميد في قصر "يِلدز" جالساً في صالون استقبال المهتئين بالبعد تحت "ثريا" ترن عدة أطنان، يستقبل المهتئين من السفراء وحوله كبار الضباط والوزراء ورجال الدولة... وفجأة وقع الزلزال العنيف وبدأ الناس يتراخضون وعمت الغوضى كل مكان. حتى إن الضباط تراخضوا إلى النوافذ القريبة يكسرون الزجاج بأعقاب أحتيهم العسكرية لكي يُلقوا بأنفسهم إلى الحديقة، وبدأت الثريا الكبيرة المعلقة في السقف تتأرجح بقوة وعنف كبندول الساعة.

كان السلطان الشخص الوحيد المتمالك لأعصابه، إذ لم يقم ولم يتحرك من مكانه بل بقي هادئاً وقوراً الوار الاائق بخليفة المسلمين، تتحرك شفاة بتلاوة بعض آيات من القرآن الكريم. هذا المشهد الهائل الذي لم يتمالك معه الضباط -الذين خاضوا الحروب وواجهوا الموت فيها- من ضبط أنفسهم فاستلموا للهبر للنجاة بأنفسهم.. لم يهتز السلطان ولم يفقد أعصابه أمام هذا المشهد، بل واجهه بأعصاب ثابتة وبرباطة جأش عجيب.

## ٢-حادثة القنبلة

في ١٩٠٥/٧/٢١م حدثت محاولة لاغتيال السلطان، وذلك بوضع ٨٠ كغم من المتفجرات مع ٢٠ كغم من قطع الحديد في مركبة أوقفت في فناء الجامع الذي كان يصلي فيه السلطان أيام الجمع، ووقّت القنبلة بحيث تنفجر في الوقت الذي يخرج فيه السلطان من الجامع. وقد تأخر السلطان في الخروج قليلاً، فانفجرت القنبلة -والسلطان بعدُ في المسجد- مُحدثاً دويًا هائلاً تردد صده من أقصى إسطنبول إلى أقصاها. قُتل في هذا الانفجار ٢٦ شخصاً وجرح ٥٨ ونفقت ما يقارب العشرين من الخيول. في هذا الموقف الرهيب الذي ساد فيه الهُراج والمُراج وتراخض الضباط والجنود والناس خوفاً وهلعاً يريدون النجاة بأنفسهم، بقي السلطان هادئاً وساكناً، ثم مشى -بعد أن أصدر بعض الأوامر- إلى عربته حيث قادها بنفسه بين هتاف الناس له.

جرّت هذه المحاولة بعدما أيقن الأرمن بأن السلطان عبد الحميد لن يطبّق البند الوارد في معاهدة "برلين" -التي اضطر السلطان على التوقيع عليها- حول الامتيازات والمؤسسات الضرورية التي طلبتها الدول الأوروبية الكبرى من الدولة العثمانية لتأسيس حكم ذاتي مستقل للأرمن مع أنهم كانوا أقلية في الدولة العثمانية. كانت خطة الأرمن هي اغتيال السلطان أولاً ثم نسف مقر الحكومة العثمانية، أي نسف الباب العالي وجسر غلطة والبنك

يحاول تغطية جسد ضابط كبير خر صريعاً بإحدى الشظايا. وما إن سُمع الدوي حتَّى أسرعَت كوكبة من الفرسان إلى مكان الحادثة وبأيديهم السيوف المشهورة، ولكنها قفلت راجعة عندما تلقَّت أمرها إشارة السلطان بالرجوع. وبعد قليل عرف الجميع مدتين وعسكريين بأن السلطان سليم معافى، فلم يتمالكوا أنفسهم -أتراكاً وأحانب، مدنيين وعسكريين- من الفرح وبدأوا بافتاف "عاش السلطان، عاش السلطان" وانتشَل عبد الحميد مدة دقيقة أو دقيقتين باعطاء الأوامر لبعض كبار الضباط، ثم توجه إلى عربته بكل هدوء ورباطة جأش. وكعادته فإنه قادها بنفسه، وكانت

تقاطع وجهه في غاية الهدوء. وهكذا ترك الجامع وذهب إلى القصر. وأصبحت إحدى المتفرجات،<sup>(٦)</sup> كما حرح كثير من المتفرجين بسبب تناثر عظام الخيول الموجودة في مكان الحادث. وسقط فخذ حصان أمام المكان المخصص

للسفراء كما تعطم زجاج ساحة برج القصر، وفتحت فتحات كبيرة في أعلى الجامع، وتخطم زجاج نوافذه مما أدى إلى جرح الكثيرين، كما تضرر داخل المسجد بشكل كبير".<sup>(٧)</sup> يقول رئيس الكتاب "تحسين باشا" في مذكراته بعد شرح الحادثة: "ماذا شعر السلطان آنذاك؟ لا أستطيع الإجابة على هذا السؤال، ولكن لا يستطيع أحد الإنكار بأنه أبدى شجاعة حارقة... ولم يُظهر أي نوع من أنواع الانفعال، أو الخوف، واكتفى بسؤال: ماذا هناك؟. وعندما اقترب من عربته ورأى الاضطراب والهلج هتف بهم بصوته الجهوري: "لا تخافوا!... لا تخافوا!"<sup>(٨)</sup> وقد نظم أمير الشعراء أحمد شوقي قصيدة<sup>(٩)</sup> مهنياً الخليفة الذي نجا من الموت بعد إلقاء قذيفة عليه، في سبتمبر ١٩٠٥م، قال فيها:

العثماني وسفارات بعض الدول الأوروبية في إسطنبول لإشاعة فوضى كبيرة فيها لفسح المجال لتدخل الدول الأوروبية.

كان القائم بهذه المحاولة -التي وضعت تفاصيلها في مدينة "صوفيا" - أرمينيا من منظمة "طشناق" من باكوا اسمه "كريستوفر ميكاليان"، حيث قام كريستوفر لتنفيذ العملية بالاتصال مع فوضي بلجيكي مختص بصنع القنابل الموقوتة اسمه "أدوارد جوريس". وقد صنعت العربة التي وضعت فيها المتفجرات في الخارج، وأدخلت أجزائها إلى إسطنبول قطعة قطعة ومن أماكن متفرقة. وبعد الحادثة تم القبض على أدوارد جوريس وعلى بعض

أعوانه، وقد اعترف في المحكمة التي حضرها السفير البلجيكي أيضاً بأنه قام بهذه العملية، وحكم عليه بالإعدام. ومع أنه حاول الانتحار في سجنه إلا أنه لم يفلح. أما السلطان "الظالم!" فقد عفا عنه وأمر بإخراجه خارج الحدود، لأنه

لم يكن يرغب في توقيع عقوبة الإعدام على أحد.<sup>(١٠)</sup>

يصف "الأميرال هنري وودس" في مذكراته هذه الحادثة فيقول: "لم أكن بعيداً عن السلطان... في هذه الأثناء فُزع دوي كصوت عدة مدافع، واهتزت الأرض تحت قدمي وكأفها تريد الإطاحة بي، ذهلت من رباطة جأش السلطان، وفجأة شاهدت العديد من الأشخاص الذين هزولوا داخل جامع "بلدز" والدماء تنسرف من وجوههم وأباديهم، حسبت لأول وهلة أن قبلة يلدوية أُلقيت على السلطان، ولكنني عندما نظرت إلى فناء الجامع الذي كان السلطان يركّز نظره عليه، ارتعشت من الدهشة؛ كان الفناء كأنه ساحة حرب دمها المدافع، فهناك تناثرت أجساد الخيول وقطع الأحشاش والعربات التي تمزقت شَرَّ ممزق وأجساد السائسين المساكين الراقدة دون حياة... وعلى بُعد مترين لاحظت جأوشاً



# نِجَاة

هَيْبًا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُكَ لِلدِّينِ الْخَافِئِ نِجَاةً  
هَيْبًا لَطْفًا، وَالْكِتَابِ، وَأَمَةً  
أَخَذْتُ عَلَى الْإِقْدَارِ عَهْدًا، وَمَوْتًا  
وَمِنْ يَدِي بَرْدُ النَّبِيِّ وَثِيْبُهُ  
يَكَادُ يَسِيرُ الْبَيْتُ شُكْرًا لِرَبِّهِ  
وَيَسْعَى هَاتِفًا عِرْفَاتُ  
وَيَسْتَوْهَبُ الصَّفْحَ الْمَسْجُودَ خُشْعًا  
وَيَسْتَغْفِرُ الْأَرْضَ الْخَصِيْبَ وَمَا جَعَلَ  
وَيُنْفِي مِنَ الْجَرَحِ عَلَيْكَ جِرَاحَهُمْ  
وَيَكْتُمُ مِنَ الْأَهْوَالِ ثُمَّ يَكْتُمُهُمْ  
تُشَابُ بِغَالِيهِ وَتُجْرَى بِطَوْبِهِ  
وَمَا كُنْتُ تَحِيْبَهُمْ فَكَلِمَةً لِرَبِّهِمْ  
رَمْتُهُمْ بِسَهْمِ الْغَدْرِ عِنْدَ صَلَاحِهِمْ  
تَرَى عَيْسَى مِنْهُمْ وَصَحَابَهُ  
يُعَادُونَ دِيْنًا، لَا يُعَادُونَ دَوْلَةً  
وَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ  
بِأَيِّ فَوَادٍ تَلْقَى الْهَوْلَ ثَابِتًا  
إِذَا زُلْزِلَتْ مِنْ حَوْلِكَ الْأَرْضُ، رَادًّا  
وَأَنْ خَرَجْتَ نَارًا فَكَانَتْ جَهَنَّمَ  
وَتَرْتَجُّ مِنْهَا لُجَّةً وَمَدِينَةً  
تَمَشِّي فِي بُرْدِ الْخَلِيلِ فَخُضَّتْهَا  
وَسِرَتْ وَمَلَأَتْ الْأَرْضَ حَوْلَكَ أَدْرَعًا  
صُحُوكًا وَأَصْنَافَ الْمَنَآيَا عَوَاسٍ  
يَحُوطُكَ إِنْ خَانَ الْحَمَاءُ اتِّبَاهَهُمْ  
تُفْصِرُ بِوَجْهِهِ أَهْدِيَّ مُتَوِّبٍ  
يُجِيبُ الرِّعَايَا وَالْقَضَاءُ مُهْلِلٍ  
تُجَانَّتْكَ نَعْمَى لِلْإِلَهِ سُنَّةٌ

فَقَصِيرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ثَنَاءَهَا  
إِذَا لَمْ يُقَنَّ مِنْ وَجْهِكَ فَانْتِ  
بَلُونَاكَ يَقْظَانُ الصُّورَامِ وَالْقَنَا  
سَهْرَتْ وَلَدَ النَّوْمِ وَهُوَ مَنِيَّةٌ  
فَلَوْلَاكَ مُلْكُ الْمُسْلِمِينَ مُضِيْعٌ  
لَقَدْ ذَهَبَتْ رَايَانَهُمْ غَيْرَ رَايَةٍ  
تَظَلُّ عَلَى الْآيَامِ غَرَاءَ خُرَّةٍ  
خَبِيْثَةً قَدْ غَرَّهَا وَأَغْرَهَا  
خَمَاهَا وَأَمَاهَا عَلَى الدَّهْرِ مِنْهُمْ  
غَمَامٌ فِي مَحَلِّ السَّيْنِ هَوَاطِلُ  
تَهَادَتْ سَلَامًا فِي ذِرَاكِ طَافِيَةٍ  
تَمُوتُ سِبَاحَ الْخَرِّ غَرَّتْ حِيَالُهَا  
سَنَتْ اِعْتِدَالُ الدَّهْرِ فِي أَمْرِ أَهْلِهِ  
فَأَنْتَ غَمَامٌ وَالزَّمَانُ حَمِيْلَةٌ  
وَأَنْتَ مَلَكَ السَّلَامِ إِنْ مَا دَرَكْتَهُ  
أَكَانَ لِهَذَا الْأَمْرِ غَيْرُكَ صَالِحٌ  
وَمَنْ يَسِسَ الدُّنْيَا ثَلَاثِينَ حِجَّةً  
مَلَكَتْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ابْنُ هَانِي  
وَمَا زِلْتَ حَسَنَ الْمَقَامِ وَلَمْ تَزَلْ  
رَهْدَتِ الَّذِي فِي رَاحَتِكَ وَشَاقِي  
وَمَنْ كَانَ مِثْلِي أَحْمَدَ الزَّمَانِ لَمْ تَجِرْ  
وَلِيْ دُرُّ الْأَخْلَاقِ فِي الْمَدْحِ وَالْهَوَى  
نَجَتْ أُمَّةٌ لَمَّا نَجَوْتَ وَدُورَكَتْ  
وَصَبْرٌ جَلَالُ الْمُلْكِ وَأَمَدٌ عَزَّةٌ  
وَأَمْنٌ فِي شَرْقِ الْبِلَادِ وَغَرْبِهَا  
سَلَامِي عَنْ هَذَا الْقَامِ مُقْصِرٌ

(\*) كاتب وباحث تركي.  
الفرامش

(1) جمع خان: وهي البنايات التي كانت تستعمل كغنادق آنذاك.

(2) İzzah Osmanlı Tarihı Kronolojisi, s.331.

(3) بشكاش: منطقة في إسطنبول مشرفة على البسفور.

(4) Ulu Hakan Abdülhamid Han, s.311.

(5) Belgelerle Sultan Abdülhamid, s.117-124.

(6) كانت هناك أمكنة خصصة للزوار وللأجانب وللسفراء، يشاهدون منها مراسم صلاة الجمعة أي ما كان يسمى آنذاك بحراسيم السلاطنة.

(7) Büyük Türkiye Tarihı, 7/191-192.

(8) İzzah Osmanlı Tarihı Kronolojisi, s.349.

(9) الشوقيات، لأحمد شوقي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1/80-82.







## كيف نفكر في الصلة بين العلم والدين؟

✽ أ.د. طه عبد الرحمن ✽

ولا بتفريق، بل جعلت العلم حرباً على الدين وجعلت الدين حرباً على العلم، ورأت أنه لا يخرج من هذه الحرب إلا بانتصار العلم وانحزام الدين؛ فانتصر العلم لديها والفزم الدين.<sup>(١)</sup> ووجدت منا نحن كذلك طائفة تدعي ما ادعاه هؤلاء، لا حجة لها إلا أن سوانا تقدموا ونحن تأخرنا، فلنحتد حدودهم حتى نتقدم؛ وما درت هذه الطائفة منا أن أسباب النزاع بين العلم والدين عند غيرنا لا وجود لها البتة عندنا مهما تكلفت من أسباب المشاهدة بيننا وبينهم، ومهما لفقت من تهمة لتاريخنا حتى يكون بسوء تاريخ غيرنا، طامعة في أن يُقبل موقفها كما قبل موقف غيرها، ويهيات أن يُقبل! فالفجوة بيننا وبين سوانا في هذا الأمر لا هي حفرة تُردم ولا هي هوة تُعبر.

لقد فُكر غيرنا طويلاً في الصلة بين العلم والدين، حتى أضحي هذا التفكير سبيلهم إلى صنع تاريخ غم جديد، تاريخ أضفوا عليه من جميل الأوصاف ما أضفوا؛ فهل فكرنا نحن من جانبنا في هذه الصلة كما فكروا، وطوّّلنا في هذا التفكير كما طوّّلوا، وخرجنا منه بما خرجوا؟ كان يصح الجواب بـ "نعم" لو أننا ابدعنا في تفكيرنا كما ابدعوا، إذ لا تفكير بحق إلا مع وجود الإبداع؛ والواقع أن تفكيرنا في هذه الصلة الخفية خلا من أسباب الإبداع، إذ اكتفينا بترديد ما قاله غيرنا في وجوه هذه الصلة.

وقد انقسم هؤلاء بشأنا إلى فرق ثلاث:

### ١- أن بين العلم والدين تناقضاً صريحاً

فقد ادعت فرقة أولى منهم أن بين العلم والدين تناقضاً صريحاً،<sup>(٢)</sup> وبالغت في التمسك بهذا التناقض، ولم تخرج منه إلا بترجيح

### ٢- أن بين العلم والدين تمايزاً لا تناقضاً

وادعت فرقة ثانية من غيرنا أن بين العلم والدين تمايزاً،<sup>(٣)</sup> لا



عن الأشياء بلغة الجاز والإشارة، في حين أن العلم يُعبّر عن هذه الأشياء بلغة الحقيقة والعبارة؛ لذا لا يجوز أن نحكم على الإشارة بما يجب في حق العبارة، وإلا صارت قولاً كاذباً، ولا أن نحكم على العبارة بما يجب في حق الإشارة، وإلا صارت قولاً لا يقبل التحقيق ولا التبدّل؛ فبتبين الدين والعلم عند أفراد هذه الطائفة منا كما تبين لغة الشعر ولغة المنطق؛ وما درى هؤلاء أن الإشارة ليست درجة واحدة، وإنما درجات كثيرة، وأن العبارة - هي الأخرى - ليست درجة واحدة، وإنما درجات مختلفة! وحينئذ لا مفر من أن يتعذر عليهم الفصل في الأقوال التي تسرل الدرجات الوسطى هل وردت على وجه الإشارة أم على وجه العبارة.

فهذه مواقف ثلاثة من الصلة بين العلم والدين وفقها غيرنا، فقلدناهم فيها على غير بصيرة من أسبابها الحقيقية في مجالها الأصلي؛ أولها التناقض، وهو يقضي إلى صرف الدين؛ والثاني التمايز، وهو يقضي إلى تقديم العلم على الدين؛ والثالث التباين، وهو يقضي إلى جعل العلم في رتبة الدين.

### ما السبيل للخروج من هذا التقليد؟

فإذن هل من سبيل إلى الخروج من هذا التقليد الذي لا يوضح ما استشكل علينا من أمر العلاقة بين العلم والدين ولا يرفع ما استغلقت علينا بصدها، بل ينقل إلينا ما يزيد هذا الأمر استشكلًا واستغلاقًا، حتى صرنا لا نعرف على هذه العلاقة في صورتها الأولى عندنا كما كنا قبل التعاطي لهذا التقليد؟ ولكي نفتتح لنا باب التجديد في النظر إلى الصلة بين العلم والدين؛ فلا بد من صرف الاستغلاق الزائد الذي دخل عليها بسبب التقليد. يأتي هذا الاستغلاق من تصوّرين متقولين عن غيرنا كلاهما مردود، أحدهما "اختزال العلم في علوم الطبيعة"؛ والثاني "اختزال الدين في أحوال الإيمان".

### لا يمكن اختزال العلم في علوم الطبيعة

فلا يمكن أن نخزّل العلم في علوم الطبيعة لوجود مبدئين يمنعان هذا الاختزال:

أولهما "مبدأ مراتب العقل"؛ وبيانه أن السؤال الذي يجيب عنه العلم هو بالذات "ماذا أعقل؟" فيكون الأصل في العلم هو العقل الصحيح؛<sup>(٢٧)</sup> غير أن العقل الصحيح ليس - كما شاع وذاع - رتبة واحدة، وإنما هو - على الحقيقة - رتب متعددة؛

تناقضا؛ فليس أحدهما يثبت حيث ينتفي الثاني، فيكون بينهما تناقض كما عند الفرقة الأولى، وإنما يختص بما لا يختص به هذا الثاني؛<sup>(٢٨)</sup> فما يشتغل به العلم لا يشتغل به الدين، وما يشتغل به الدين لا يشتغل به العلم؛ فالعلم عند أفراد هذه الفرقة الثانية موضوع المعرفة والحقيقة، بينما الدين موضوع الشعور والحدس؛ ووضوابط المعرفة والحقيقة لا تنطبق على مجال الشعور والحدس، وقواعد الشعور والحدس لا تنطبق على مجال المعرفة والحقيقة. وعلى هذا، فلا النقد العلمي مقصوره أن ينال من الدين، ولا السلطة الدينية تمقدورها أن تنال من العلم.

ووجدت منا نحن أيضا طائفة أخرى ادعت ما ادعاه هؤلاء، حجتها في ذلك أن العلم مبني على التبدّل العقلي والدين مبني على التسليم القلبي، ولا مطمع في التقدم والتحضّر مثلما تقدّم وتحضّر سوانا إلا باعتماد طريق العقل على شرطهم؛ ولكنّ كان فخرها كبيرا أن تجد بين أسلافنا من أشبه قوله قول غيرنا، فراحت تشدد على اتباعه، وما ذاك إلا ابن رشد الذي قرّر وجوب الفصل بين العلم والدين بدعوى أن العلم طريقه البرهان الذي يناسب العلماء وأن الدين طريقه الإيمان الذي يناسب العوام! وما دَرّت هذه الطائفة الثانية منا أن البرهان لا يستقل بنفسه ولا يغني عن الإيمان كما أن الإيمان لا يستقل بنفسه ولا يغني عن البرهان!

### ٣- أن بين العلم والدين تباين لا تناقضا

وأدعت فرقة ثالثة من غيرنا أن بين العلم والدين تبايناً،<sup>(٢٩)</sup> لا تناقضا ولا تمايزاً؛ فليس أحدهما يثبت حيث ينتفي الثاني، فيكون بينهما تناقض كما عند الفرقة الأولى، ولا أنه يختص بما لا يختص به، فيكون بينهما تمايز كما عند الفرقة الثانية، وإنما الواحد منهما يتناول ما يتناوله الآخر، لكن بغير الوجه الذي يتناوله به، فمتعلّقهما واحد ووجه تعلّقهما مختلف؛<sup>(٣٠)</sup> فالاعتقاد في العلم غير الاعتقاد في الدين والمعرفة في هذا غير المعرفة في ذاك والفعل هنا غير الفعل هناك، فيكون العلم والدين بمنزلة شكلين متباينين من أشكال الحياة، بل بمنزلة علمين اثنين لا مجال للمقارنة بينهما ولا لمقايسة أحدهما بالآخر؛ ومادام العلم والدين بهذا التباين البالغ، فلا يُعقل أن نصرف الدين بحجة أنه معرفة لا تقوى على التهوّض بموجبات العلم، كما لا يُعقل أن نسعى إلى تقويته بأن نخلع عليه حلية العلم. ووجدت منا نحن كذلك طائفة ثالثة ادعت ما ادعاه هؤلاء، مسترجعة هذا الصدد ما قاله بعض أسلافنا من كون الدين يُعبّر

وحيثما وجدت رتبة من هذه الرتب العقلية فمّة علم على قدرها؛ وعلى هذا، يكون العلم فوق العلم الطبيعي من كانت رتبة العقل الذي يتعلق به تعلو على رتبة العقل الذي يتعلق بالعلم الطبيعي، كما يكون العلم دون العلم الطبيعي متى كان العقل المتعلق به ينزل عن رتبة العقل المتعلق بالعلم الطبيعي؛ وهكذا، فالعلم أوسع من أن يستوعبه العلم الطبيعي وحده.

والمبدأ الثاني هو "مبدأ استكمال العلم"؛ وتوضيحه أن الأصل في كل علم من العلوم أن يطلب كماله، ولا يُحصّل هذا الكمال إلا بالانتجاع إلى العلم الذي يعلوه؛ ذلك أن كل علم تكون به آفات وله حدود، ولا يمكن أن يُزيل هذه الآفات ويُرفع هذه الحدود إلا علم أرقى منه، فلا بد إذن لكل علم من أن يظل موصولاً بالعلم الذي فوقه، حتى تزول عنه آفاته وترتفع عنه حدوده؛ وهكذا فالعلم الطبيعي لا تذهب عنه مناقضه ويكتمل حقا إلا بعلم غير طبيعي يسمى عليه.

### لا يمكن اختزال الدين في أحوال الإيمان

كما أنه لا يمكن أن تختزل الدين في أحوال الإيمان لوجود مبدئين يتمتع هذا الاختزال:

أولهما "مبدأ تعدد شعب الحياة"؛ ويانه أن السؤال الذي يوجب عنه الدين هو بالذات: "كيف أحياء؟" فيكون الأصل في الدين هو الحياة الطيبة،<sup>(٩)</sup> غير أن الحياة الطيبة ليست شعبة واحدة، وإنما شعب متعددة؛ وقد نُجمل هذه الشعب في ثلاث كبرى، وهي "شعبة الإيمان"، وتدخل فيها كل الاعتقادات؛ ثم "شعبة العلم"، وتدخل فيها كل المعارف؛ فـ "شعبة العمل"، وتدخل فيها كل الأفعال؛ ولا حياة طيبة إلا بتكامل هذه الشعب الثلاث فيما بينها، فالفرد لا يحيا بشعبة واحدة منها، إن إيمانا وحده أو علما وحده أو عملا وحده، ولا بشعبتين منها، إن إيمانا وعلما معا أو إيمانا وعملا معا أو علما وعملا معا، وإمّا يحيا بها جميعا على قدر نصيبه من كل شعبة منها؛ وهكذا، فالدين أوسع من أن تستوعبه حال الإيمان وحدها.

والمبدأ الثاني هو "مبدأ استكمال الشعية"؛ وتوضيحه أن الأصل في كل شعبة من شعب الحياة الطيبة أن تطلب كمالها، ولا تُحصّل هذا الكمال إلا بالتداخل مع الشعبتين الآخرين، ذلك أن كل شعبة تكون لها حاجات ولها تعلقات، ولا يمكن أن تلي هذه الحاجات وتُرضي هذه التعلقات إلا هذه أو تلك من

الشعبتين الآخرين أو هما معا؛ فلا بد إذن لكل شعبة من أن تظل موصولة بغيرها من شعب الحياة؛ وهكذا، فالشعبة الواحدة لا تبلغ غايتها وتكتمل حقا إلا بباقي الشعب.

### معالم الصلة بين العلم والدين عندنا

بناء على هذا الذي ذكرناه في سياق إبطائنا للاختزالين المتقولين، تنضج معالم الصلة بين العلم والدين التي قد نكناها بمجذدين غير مقلدين، ومنتجين غير مستهلكين؛ وهذه المعالم المبدعة هي:

أ- أن مفهوم "العلم" يصح -مقتضى "مبدأ مراتب العقل"- أوسع من المفهوم المتداول "للعلم"، كما أن كل علم يصح -مقتضى "مبدأ استكمال العلم"- محتاجا إلى ما فوقه من العلوم؛ وفي هذا تجديد يخالف ما تقرر عند غيرنا.

ب- أن مفهوم "الدين" يغلو -مقتضى "مبدأ تعدد شعب الحياة"- أوسع من المفهوم المتداول "للدن"، كما أن كل شعبة تغلو -مقتضى "مبدأ استكمال الشعية"- محتاجة إلى ما ينظرها من الشعب؛ وفي هذا تجديد يخالف ما تقرر عند غيرنا.

تترتب على هذا الاتساع في مفهوم "العلم" ومفهوم "الدين" نتائج أساسية:

أولاهها: أن العلم لا يقابل الدين مقابلة تناقض، ولا مقابلة تمايز، ولا مقابلة تباين، وإنما مقابلة تداخل؛<sup>(١٠)</sup> إذ يكون العلم جزءً واحداً من أجزاء الدين كما يكون الإيمان جزءً ثانياً والعمل جزءً ثالثاً من هذه الأجزاء.

والثانية: أن العلم -خلافاً للقاتلين بالتناقض- لا يتمتع أن يرد في ترتيب واحد مع الدين، وأنه -خلافاً للقاتلين بالتمايز- لا ينزل رتبة أعلى من الدين، وأخيراً أنه -خلافاً للقاتلين بالتباين- لا ينزل نفس الرتبة التي ينزلها الدين، وإنما ينزل رتبة أدنى منه كما يكون الجزء أدنى من الكل، إذ إن العلم يدخل في الدين دخول الإيمان والعمل فيه.

والثالثة: أن العلوم التي تكون جزءً من الدين لا تقتصر على ما اختص باسم "علوم الدين"، وإنما تشمل أيضا ما اختص باسم "علوم الدنيا"، سواء كانت علوم رياضة أو علوم طبيعة أو علوم حياة أو علوم إنسان؛ فكل علم مضبط بالمبدئين المذكورين: "مبدأ مراتب العقل" و"مبدأ استكمال العلم" يصح أن يُعبد ويُقرَّب به، أي يُتدبَّن به؛ وقد ذكرنا أن المبدأ الأول يقضي بأن تنوع العلوم بتنوع رتب العقل، أعلاها ما تعلق بما فوق الطبيعة؛



وأن المبدأ الثاني يقضي بأن يكون كل علم موصولاً بما فوقه، حتى يتمكن من صرف النقص الذي يلحقه.

**والرابعة:** أن تطوُّر العلوم -على خلاف ما يظُنُّ غيرنا- لا يُضَيِّق من رقعة الدين، بل يزيدها توسعاً، ولا ينقص من تأثيره، بل يزيده قوة، ذلك أن العلوم، لما كانت جزءاً داخلياً في بنية الدين نفسها، كانت الأطوار التي تتقلب فيها والتي يُفَضَّلُ لاحقاً سابقاً، تفتح في الدين آفاقاً معرفية غير مسبوقه وترقى بفهمنا له درجات على قسدر هذه الأطوار، بل إنها تتعدى ذلك إلى كونها تُحدِّد قدرتنا على التدبُّر وتُتَوَّع سبيلُ تحقُّقه لدينا.

والقول الجامع أن صلة العلم بالدين، من منظور الإسلام، هي صلة تداخل يكون فيها العلم جزءاً من الدين، فيلزم بحسب هذا المنظور أن تُقدِّم الدين على العلم، لا تقدم الفاضل على المفضول، وإلّا تقدم الكل على الجزء كما يلزم بحسبه أن ندخل في الدين كل العلم، لا دخول التابع في المتبوع، وإلّا دخول العنصر في المجموع، ألا ترى كيف أن مكتشفات العلوم وحقائقها -وهي تشهد بصدق أجبار الدين وصحة أحكامه- نزداد بها افتكاراً واعتباراً، حتى إنها تُقَوِّي صلتنا بخالقنا كما يقويها دائم صلواتنا! ■

(\*) جامعة محمد الخامس، كلية الآداب / المغرب.

**الهوامش**

(١) ومقابلة الفرنسي: "contradiction".

(٢) لا يخفى أن هذه الفقرة تتكون من الألواريين ومن تبعهم من الوضعانيين والعلمويين.

(٣) تعني "الفصل"، ومقابلة الفرنسي: "Séparation".

(٤) يأتي على رأس هذه الفقرة مؤسس التاويلات الحديثة الفيلسوف الألماني "فريدريك شلايماخر" والذي تبنى نظريته على فكرة "الدين الخالص"، انظر كتابه المترجم إلى الإنجليزية:

F. SCHLEIERMACHER: On Religion, Speeches to its Cultured Despisers, trans. R. CROUTER, Cambridge University Press, 1998.

(٥) مقابلة الفرنسي: "Incompatibilité".

(٦) يأتي على رأس هذه الفقرة الثالثة الفيلسوف النمساوي الشهير "فيتجنشتاين"، انظر مقالته "دروس في الاعتقاد الديني" ضمن المجموع:

"WITTGENSTEIN: Leçons et conversations sur l'esthétique, la psychologie et la croyance religieuse, trad. Jacques FAUVE, Gallimard, Paris, pp. 107-135.

(٧) تدبر الآية الكريمة: ﴿وَلَوْلِكَ الْأَمْثَالُ لَنُفِّرُنَهَا لِلنَّاسِ وَمَا يُعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾ (المعارج: ٤٣-٤٤).

(٨) تدبر الآية الكريمة: ﴿مَنْ عَمِلْ ضَالِحًا مِمَّا دُكِرَ أَوْ كُنِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً مُبَارَكَةً﴾ (الزمر: ٤٧).

(٩) نستعمل كلمة "تداخل" هنا بمعنى المنطقي القديم، أي "دخول شيء في آخر من غير أن يصبح العكس"، ومرادفه في لغة نظرية المجموعات هو "تضمن ضيق"، ومقابله المنطقي بالفرنسية هو: "Implication" ومقابله المجموعي هو:

"Inclusion stricte".

## جندى المشيئة

يا حامل راية الحق،

يا صاحب الإرادة الشَّيْء التي لن تُطال ولن تُقهر!

إنَّ شَوْقاً مبرحاً يقود خطاك،

ويدفعك لكي تضرب في الأرض، وتُجوب الآفاق.

أنت جندى المشيئة الإلهية اللامائية،

ألقَتْ بك أمواج الغيب على صفاف الدنيا

لتشارك في إصلاحها...

فإذا خسرت معركة هنا أو هناك،

فلا تبتسئ، فأنت مربوط على قهقور الظفر...

\*\*\*





# الأيام الستة الأولى من خلق الكون

د. عثمان جالماق\*

هـ

من المستحيل طبعاً إعادة تكرار الشروط والظروف التي أدت إلى الخلق على سطح أرضنا، ولكننا نستطيع مشاهدة بعض الشروط والظروف التي كانت موجودة في المراحل الأولى من خلق الكون وذلك بتسريع هذه الجزيئات دون الذرية تسريعاً كبيراً، ومشاهدة طبيعة تصرف هذه الجزيئات في تلك الظروف وفي تلك السرعات؛ أو نستطيع - في الأقل - بالمعادلات والحسابات التي نجريها للظروف والشروط التي نستطيع مشاهدتها، القيام بتخمين الحوادث التي لا نستطيع مشاهدتها. وهكذا فإن المعلومات التي نملكها حول "الانفجار الكبير" (Bing Bang) في الثواني الأولى من الانفجار، ثم في سنواتها الأولى، ثم في مئات السنوات التي أعقبتها إنما تستند إلى الحسابات المبنية على هذه المشاهدات وعلى نتائجها. وقد دلت البحوث بأن الجزء الأكبر من الكون يتألف من الألكترولونات والنيوترونات والبروتونات.

نستطيع القيام في محطات "المعجلات الذرية" (التي نستطيع وصفها بأنها ميكروسكوبات ضخمة) بإعطاء سرعات كبيرة جداً

هناك أسئلة شغلت أذهان الناس منذ القدم مثل "هل الكون لا نهائي؟ أم هو واسع فقط؟ وأين بدايته وأين نهايته؟" وبالنسبة للذين لا علاقة لهم بالدين فالكون لا بداية له ولا نهاية. وحتى السنوات الأولى من القرن العشرين كان الاعتقاد السائد هو أن الكون ثابت ضمن الزمن، ولكن هذه الفكرة تغيرت في بداية القرن العشرين تغيراً جذرياً؛ إذ تبين أن الكون في توسع مستمر، وأن هناك بداية للكون ونهاية. ونحن نعلم الآن بأننا إذا رجعنا إلى الماضي البعيد جداً نرى أن الكون كله بنجومه ومجراته كان متركزاً في نقطة واحدة حين ظهر إلى الوجود من العدم. وعندما تأتي إلى هذه المرحلة نرى أن علم الكونيات (Cosmology) يبحث عن قصة الكون في علم "الفيزياء النووية" وأنه يبحث عن قصة الكون في الحركات التي نستطيع مشاهدتها في هذه الجزيئات التي هي أصغر الموحودات في كوننا الأرضية. فمن المثير للاهتمام أن تكون القوانين التي تحكم الكون مبنية في نواة الذرة وفي جزيئات دون الذرية.<sup>(١)</sup>



عندما أصبح عمر الكون  $10^{-10}$  ثانية (أي جزء من مليار جزء من الثانية) نستطيع متابعة ما جرى فيه من المعجزة النووية "CERN" الموجودة في سويسره. يقول المختصون أنهم نجحوا في الحصول على درجة حرارة عالية جدًا تبلغ  $10^{10}^{\circ}$  (يساوي ألف تريليون درجة مئوية).

والآن تتم المحاولات للوصول إلى معرفة خواص الفترة الغامضة الموجودة في المرحلة الأولى من الحلق التي لا نعرف حالياً عنها شيئاً، وذلك بالاستعانة بالجزيئات دون الذرية وبالوحدة الصغيرة جداً لأجزاء الزمن، وبالتغيرات التي حصلت مع تغير درجات الحرارة. أما في المراحل التي تلت فسنستطيع القول بأن الكون المادي بدأ يأخذ شكله تدريجياً. ويتناول العالم الفيزيائي البروفيسور الدكتور ستيفن وينبرغ "Prof. Dr. Steven Winberg" الحائز على جائزة نوبل (والذي يعد من أفضل الكتاب العلميين) في كتابه "الدقائق الثلاث الأولى" التطورات التي حدثت منذ حصول الانفجار الكبير وحتى تشكل الجرات، ويقسمها إلى ست مراحل. والآن لتتابع هذه المراحل الست المثيرة للتحلق:

اللحظة الأولى التي تجلّي فيها الأمر الإلهي **لَكُنْ** تقابل مرحلة ١٠-٢ من الثانية (أي ١٠٠/١ من الثانية). الحرارة هنا مرتفعة جداً وتبلغ ١٠٠ مليار درجة مئوية. الكون في هذه المرحلة الأولى يشبه حساءً من الطاقة الإشعاعية. ومع أن الجزيئات دون الذرية مثل البروتونات والنيوترونات التي تتولّف نواة الذرة لم تتشكل بعد، إلا أن فترة الخلق بدأت تأخذ مسارها. لا توجد هناك سوى الألكترونات وضدها البوزيترونات، والزمن يبلغ جزءً من مائة جزء من الثانية. وعملية الخلق تجري بسرعة كبيرة إلى درجة أن الطاقة والمادة والكثافة بدأت تأخذ أبعادها الفيزيائية (المادية)، أي المادة بدأت تتشكل بمرحّة ما، وبدأت تكتسب أبعادها.

كانت الحرارة في لحظة خلق الكون (أي عندما كان عمر الكون  $10^{-43}$ ) ثانية تبلغ  $10^{32}$  درجة مئوية (أي تريليون  $10^{12}$  تريليون  $10^{24}$  مائة مليون درجة مئوية). فإذا علمنا أننا نستطيع حالياً التحدث عن مليار درجة مئوية فقط، علمنا مبلغ الارتفاع الهائل لدرجة الحرارة عند ولادة الكون.

وهكذا نرى كيف أن نواة الكون الصغيرة التي ظهرت في جزء من مائة جزء من الثانية تظهر من ظلام العدم إلى نور الوجود، وكيف أنها بدأت تتوسع بيد القدرة اللاهائية بسرعة



كبيرة حتى بلغت في ذلك الجزء الصغير جداً من الزمن إلى سعة بلغت ٤ سنوات ضوئية. تظهر النيوترون والبروتون في بداية المرحلة الثانية تكون الحرارة قد انخفضت إلى ٣٠ مليار درجة مئوية. وبدأت البروتونات والنيوترونات (التي هي أجزاء من الذرة) بالظهور. هنا نرى أن الألكترونات والبروتونات والنيوترونات وضد النيوترونات والفوتونات في حالة مختلطة. وبدأت نسب الجزيئات دون الذرية التي تشكل نواة الذرة بالتعین: ٣٨ ٪ نيوترونات، ٦٨ ٪ بروتونات. ويظهر البروتونات والنيوترونات تكون الكواركات والعليونات<sup>(١)</sup> قد خلقت أيضاً. وبعد هذه المرحلة التي تحققت في عُشر جزء من الثانية تأتي المرحلة الثالثة، في هذه المرحلة التي تكون فيها المادة الموجودة في الكون في حالة كثيفة جداً، لا تزال الحرارة مرتفعة جداً. ومع أنها انخفضت عما كانت عليه في المرحلة الثانية إلا أنها لا تزال في مستوى ١٠ مليار درجة مئوية. أما كثافة المادة فيها فهي أكثر من كثافة الماء بـ ٣٨٠,٠٠٠ ضعفاً<sup>(٢)</sup>.

ولكن الحرارة لم تنخفض بعد في هذه المرحلة إلى الدرجة التي يمكن فيها انقراض النيوترونات<sup>(٣)</sup> والبروتونات لتشكل نوى الذرات. وللمرحلة التالية لخلق جزيئات البروتونات والنيوترونات التي تشكل نواة الذرة، هي مرحلة تعيير وضبط أعداد هذه الجزيئات. ولو لم يتم مثل هذا التعيير والتنظيم لتحوّلت النيوترونات والبروتونات (التي تكون أعدادها متقاربة) وكذلك جميع نوى الذرات في الكون إلى نوى مادة الهليوم، وبالتالي لم تكن الشمس (التي يتألف خزينها من الهليوم) تستطيع أن تستطع وأن تبث ضياءها. أي لم يكن بمقدورها إرسال أشعة الحياة إلى الكوكب الحسي (أرضنا) الذي يبعد عنها ١٥٠ مليون كم؛ لأن الهليوم بالنسبة للنجوم -التي يبلغ حجمها حجم الشمس- لا يعد وقوداً بل رماداً مختلفاً. ولكي يمكن إيقاد هذا الرماد هناك حاجة لنجوم أكبر بكثير وإلى انفجارات رهيبية تحدث فيها.

وهكذا تكون الحرارة قد انخفضت بعد عُشر ثانية من خلق الكون إلى ٣٠ مليار درجة مئوية؛ حيث حرّرت في أثناءها عمليات التعيير، وبدأت النيوترونات تنقلب بسرعة إلى بروتونات، ونسبة وجود الهليوم والهيدروجين للمشاهدة حالياً في الكون تشير إلى صحة الحسابات التي أحرّيت حول عمليات التعيير هذه. بعد مرور ١٤ ثانية على خلق الكون انخفضت الحرارة إلى ٣ مليارات درجة مئوية، وانتهت مرحلة خلق الألكترونات. وبينما خزنت الشحنات الكهربائية الموجبة في البروتونات، أعطيت الشحنات الكهربائية السالبة إلى الألكترونات. وهكذا تم تحييل القوة الكهربائية الحاملة في الكون إلى حالة متعادلة. فقد نظم كل شيء ضمن توازن متسق ومنظم بشكل حارق، وهكذا خلقت الألكترونات بعددٍ مساوٍ لعدد البروتونات.

ظهور النيوترون والبروتون

عمر مقداره ١٤ ثانية

في المرحلة الرابعة تكون الحرارة قد انخفضت إلى ٣ مليارات درجة مئوية. والكون أصبح بعمر ١٤ ثانية، وهو مستمر بالتوسع بسرعة رهيبية. وعندما كانت الألكترونات والبوزترونات تتقابل مع بعضها، كانتا تفتيان وتولد طاقة بشكل فوتونات الضوء. وهذه أيضاً هي المرحلة التي تبدأ فيها النوى المستقرة لذرات الهيدروجين والهليوم بالتشكل. أي أصبحت الظروف ملائمة لأول مرة لاستقرار بروتون بجانب نيوترون. وهاتان الجزيئتان دون الذرة تولّدان قوة جاذبية تبدأ بمقاومة سرعة التوسع.

وبما أن معظم كتلة الذرة متجمعة في نواتها، فالنواة هي التي تمثل المادة. والنواة تمثل بنية مادية كثيفة جداً إلى درجة أننا لو ملأنا ملعقة شاي بمادة نوى الذرات فقط لبلغ وزن الملعقة مليار طن. وبما أن عناصر النسوة مضغوطة في حجم أقل بالنسبة



## الحرارة تتخفّض

في المرحلة الخامسة من الخلق انخفضت درجة حرارة الكون إلى مليار درجة مئوية. وتبلغ هذه الحرارة ٦٠ ضعف الحرارة الموجودة في مركز شمسنا. والزمن الذي مضى منذ المرحلة الأولى حتى الآن بلغ ٣ دقائق وثانيتين حسب حساب العلماء. في هذه المرحلة نرى سيادة الفوتونات والنيوترونات وضد النيوترونات. في المرحلة السادسة انخفضت الحرارة إلى ٣٠٠ مليون درجة مئوية. وفي الدقيقة الخامسة والثلاثين من عمر الكون أصبحت المواد الحام لكل شيء في الكون جاهرة. وحرارة انخفضت من المليارات إلى الملايين. وانخفاض الحرارة يشكل أهم سمة لهذه المرحلة، وفيها تستمر الألكترونات في إطلاق الطاقة الفوتونية عبر اصطدامها باليونات.

منذ ولادة الكون بالانفجار الكبير وحتى أخذه شكلاً معيناً في هذه المرحلة، تستمر في هذه المراحل الست انتباهنا، وقد ورد في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُعْطِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَبِثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسْتَخِرَاتٍ يَوْمَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْخَلْقُ وَالْأَوَّلُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٥٤).

فالقُرآن يقوم من جهة بتنظيم سلوك الإنسان وأفعاله وبياضح الحقائق له، ويقوم من جهة أخرى بلفت انتباهه إلى أسرار الكون، ويطلب منه تأمله وقراءته ككتاب، ومحاولة معرفة أسرارهِ وخفاياه، ويلفت أنظارنا وانتباهنا إلى مراحل الخلق الأولى وهي ست مراحل مختلفة. ونستطيع أن نقول إن ذكر مفهوم اليوم - في الوقت الذي لم يكن هناك النظام الشمسي ولا كوكبنا موجوداً - هو مفهوم نسبي يأتي بمعنى المرحلة.

أجل، كان الكون في البداية نواة صغيرة، وتحوّل عبر مليارات السنوات من شكل إلى شكل، في المليار الأولى انفصلت المادة عن الطاقة، وتحوّل الكون إلى حالة شفافة. وبعد مليارين من السنوات تم تركيب نوى الذرات الثقيلة وحلقت أوائل المجرات. استمرت المرحلة الثالثة حتى بلوغ الكون عمر ٣ مليارات سنة. في هذه المرحلة ظهرت المجرات التي تمت مشاهدتها بتلسكوب

"هابل" الفضائي ضمن حسابات "الساحة العميقة" Deep Field. وفي المرحلة الرابعة للكون ظهرت المجرات التي تملك مواد ذات نوى ثقيلة، وتشبه المجرات الحالية. وفي المرحلة الخامسة للكون تشكلت مجموعتنا الشمسية مع جميع كواكبها الدائرة في أفلاكها، وفيها أيضاً أخذ كوكبنا الأرضي مكانه وموقعه وحجمه ضمن أفضل الشروط الملائمة لظهور الحياة فيه. أما في المرحلة السادسة والأخيرة فقد ظهرت الحياة. وعندما أصبح كل شيء ملائماً ظهر الإنسان.

لقد خلق الكون وما فيه مرحلة مرحلة، وكما هو واقع في جميع الأمور الفنية الدقيقة كان هناك سير منظم وتحوّل من البساطة إلى الكمال. وفي كل مرحلة كانت يد القدرة متحلية وواضحة. أجل! لم يُخلق الكون دفعة واحدة، بل على مراحل، وكان الإنسان هو الثمرة النهائية لهذه المراحل. والإنسان نفسه مرّ بمراحل ست، فقد تحوّل في رحم الأم من نقطة إلى علقه ثم إلى مضغة، ثم خلقت عظامه ثم كسيت لحمًا ثم تم إنشاؤه خلقاً آخر... فبارك الله أحسن الخالقين. ■

(٩) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أورهان محمد علي

الغوامش

(١) الجزيئات دون الذرية هي الجزيئات الأصغر من الذرة من أمثال "الألكترونات" و"البروتونات" و"النيوترونات".

(٢) الألكترون: جزيئة دون ذرية تشمل شحنة كهربائية سالبة. وهي تدور حول نواة الذرة.

(٣) ضد الألكترون (تدعى أبعداً "پوزترون" "pozitron"): جزيئة ذرية بنفس كتلة الألكترون ولكنها تحمل شحنة موجبة.

(٤) أو نستطيع التعبير عنه بالكرسي الآتي:  $1/137$  - وهذا يساوي العدد مقسوماً على رقم واحد وأمامه ٤٣ صفراً.

(٥) هذه هي المعادلة التي وضعها ألبرت أينشتاين حول العلاقة بين الطاقة والكتلة:

$$E = \text{الطاقة}$$

$$m = \text{الكتلة}$$

$$c = \text{سرعة الضوء}$$

أي إن الطاقة تساوي الكتلة مضروبة في مربع سرعة الضوء.

(٦) الكواركات والغليونات: هي من الجزيئات دون الذرية المكتشفة حديثاً

(٧) أي إن ١ سم في المادة آنذاك كانت تزن ٣٨٠ كغم، أي أكثر من ثلث طن

(٨) النيوترون: من الأجزاء الذرية.

# النكرار والنمائل في الفنون الزخرفية الإسلامية

د. جواد محمد مصباحي

فجماليات المكان أو القطعة/التحفة ضمن هذا المكان ما هي إلا نتيجة لاحتدام قوى داخلية في نفس المبدع: **ظاهرها دينوي/ وظيفي**: فالمسجد للصلاة، القبة حل هندسي لإيجاد الفضاء الواسع، الأرابيسك عنصر تكسية تزيين... الخ. كل هذه أسباب ظاهرية سهل على المتلقي معرفتها دون إمعان فكر أو تأمل. **وباطنها أخروي/ تعبدي**: فجماليات عمارة المسجد تحيل إلى الإحساس بالسكينة الروحية، والتأمل في القبة يدفعك للتفكير في

قد كان السعي وراء إيجاد نسق زخرفي يتلاءم مع السكينة النفسية للمتلقى المنووعة من خلال إبداعات الفنون الإسلامية، وكذا حرص الفنان المسلم في مختلف الثقافات عند اشتغاله، على تطويع موادها بما يتلاءم مع الرؤية العامة للإطار البنيوي لما يبدعه، والمتمثل في العمل على بلورة صور الجمال الظاهري للقطعة لتكون نفق العبور بالتأمل إلى الإحساس بالجمال الباطني بين ثنايا نفسه حتى تنلسه مشاعر الجلال الجمالي.

ق

الملكوت الأعلى، وما عناصر الأرابيسك إلا إسقاطات لأفعال تعبدية: فالزخارف النباتية بلطفها وبليتها وانسيابها؛ رحمة؛ والزخارف الهندسية ببسها وقوتها؛ حق وروبة؛ والخط بالجمع بين الانسيابية والقوة؛ حكمة.

وكأن هذا الفنان المبدع يعرج على درجات العرفان التعبدية بدءً برحمة ربه به أن جعله مسلماً ينطق بالشهادة بحكم فطرته، ثم ينضبط بخافة وروبة من وجوب حق العبادة عليه، ليصل مرابط الصفاء والحكمة متأسياً بالصفات الإلهية بحكم المعرفة المطلقة بعد إذلال نفسه بالعبادات ودوام الدعاء. كل هذه أسباب باطنية لا ينجلي استقراء إلا بما يعمق التفكير والتأمل الداخلي وأنت أمام التحفة. عود على بدء فتمثيلية الجمال بنسقيته الظاهري والباطني هي الدافع للارتكاز في عملية التصميم الزخرفي في الفنون الإسلامية على مبدأ الرؤية الجمالية الشاملة والمتمثلة في الانطلاق من الجزء/البعض للوصول إلى الكل.

ويمكن حصر مبدأ الرؤية الجمالية الشاملة في عدة بنود دائمة التحقيق خلال عملية التصميم تتجلى في:

## ١- احترام النسب والتناسب

عند تحليل كثير من عناصر الزخرفة الإسلامية لن نجد نفسك إلا وأنت محصور بأشكالك داخل عنصر الدائرة، وما الدائرة إلا محيط متناسب بقدر معلوم يبعد عن المركز/"النقطة" أداته الفرجار.

**النقطة:** وفي البدء كانت النقطة هي وحدة التعبير عن المطلق، عن الكلية، فهي المنشأ وهي المنتهى، هي الكل الذي لا أجزاء إلا به ولا انطلاقي إلا منه ولا رجوع إلا إليه. وكأن الفنان بذلك يمثل عقيدته المبنية بالأساس على التوحيد المنطوق بقول "لا إله إلا الله؛ فـ"لا" الثافية لما قبلها إجمالاً والناصة على ما بعدها مطلقاً تجل إلى سبب الوجود إلا لله تبارك وتعالى؛ فلا وجود إلا به ﷻ هو الكل وهو المطلق. فكل مخاض للإبداع الزخرفي في الفنون الإسلامية يبدأ بهذا الجسم الذي حتماً لا يعبر عن العدم ولكن عن الخلق الفني والوجود الزخرفي، وكذلك عن نهايته. ومع التكرار المنتظم لهذا العنصر في اتجاه واحد كان "خط".

**الخط:** فما الخط؟ هو المقدار المعلوم للابتعاد عن نقطة المركز لينتهي كذلك بنقطة، وبحركة انسيابية لئلا رحمانية على نفس القدر المعلوم نلتقي للبداية وكانت "دائرة".

**الدائرة:** فما الدائرة؟ إذا كانت النقطة من وجهة النظر

التشكيلية/الرسمية يمكن التعبير عنها أداتياً بطبعة قلم أو فرشاة في حركة خفيفة منتظمة هي جسم معتم ذو كثافة في منتهى الصغر حجماً، فالدائرة ما هي إلا تكبير لهذا الجسم مع تلاش في الإعتام والكثافة الداخلية لتكون جسماً شفافاً محصوراً برودة الفعل الحاصلة من الحركة الانسيابية الرحمانية للخط بالمقدار المعلوم على الواقع المحسوس.

وهي بيئة الإبداع للأشكال الأساسية في فنون الزخرفة الإسلامية؛ فمن خلال حركات هندسية مدروسة داخل هذه الدائرة بين مركزها ومحيطها محكومة بقواعد جبرية هندسية، نحصل على المثلث، المربع والخماسي، وهي النماذج الأولية لبنيات التشكيل والتصميم الزخرفي، سواء بشكل انفرادي وما يترتب عنها من علاقات هندسية زخرفية، أو من خلال تكرار الشكل الواحد وتداخله وما يترتب عن ذلك من تركيبات بنوية. وكذلك يمكن الجمع بين هذه الأشكال الأولية في بيئة واحدة لتصبح زخرفاً قائم الذات أو تختلط ناظماً مركباً يمكن من استنباط زخارف متنوعة.

فالاحتكام إلى شكل الدائرة في بنية التصميمات الزخرفية سمح للفنان المسلم بخلق أشكاله خاضعة لنسب معلومة وذات تناسب بنوي، وكأنه يدلل من خلال إبداعاته على قول الرحمن تبارك وتعالى ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (الفرق: ٤٩).

## ٢- توزيع العناصر

إذا كان الاشتغال في إنجاز الزخارف على الدائرة كشكل أساسي أدى إلى احترام النسب والتناسب في الإخراج الفني -مما يدفع بالتأمل إلى الانغماس في لحظات تدفق جمالي كله انبساط وسكينة وراحة نفسية كردة فعل على التوازن المظهري للتحفة- فإن توزيع العناصر ضمن الكتلة الكلية بنسقيته: التوزيع الكمي، والتوزيع الكيفي ما يزيد القطعة الفنية إلا رسوخاً في البعدن الجماليين الظاهري بالتوازن المرمي، والباطني بالاستقراء التأملي الانكماش المعكوس، أي الدخول من الوحدة الفنية الكلية، إلى جوهر الفرد الجزئي بين التفاصيل وتحصيل كنهه.

وينقسم هذا التوزيع إلى شقين:

### أ- التوزيع الكمي

ويتجلى من خلال تحكم الفنان المبدع في الكتلة والفراغ، على أية مادة من مواد الاشتغال وتقنيات مختلفة. فإذا تطرقنا بالقراءة لنماذج الزخرفة النباتية (فن التوريق،



—وهنا أفتح قوساً لأحدد عناصره المكونة بشكل إجمالي دون الدخول في متاهات اختلاف التسميات حسب البلدان والتقنيات—، لنكونَ فهماً قاعدياً لقراءتنا هذه.

ف نجد أن هذه العناصر هي:

**المسار:** —هو بمثابة الهيكل البنائي للوحدة الزخرفية— يأخذ في أغلب الأحيان أشكالاً لولبية يمكن أن تكون مفردة أو مزدوجة، متعانة أو متنافرة، تسرح بالتأمل في تيه سرمدية الوجود اللاهائي. فلا وضوح لمركز البداية ولا استجلاء لنقطة النهاية، وكان الفنان لمساراته هذه يعبر عن معاناته وهو يعبر هذا التيه لينتشي بنشوة الإبداع والخلق.

**الورقات:** —هي أجسام الوحدات المتفرعة من خلال هيكل المسار— تأخذ عدة أشكال حسب مادة وتقنيات الاشتغال، وكأنها انفتاح لهذا المسار في حركات توليدية، أخذت أصولها أولاً من الطبيعة كتأويل لرياحين الجنة في العالم الأخروي، ثم هدّبت وتحورت لتصبح رشيقة المظهر تندمج مع المسار في كتلة واحدة فتزيد التأمل تبها ونشوة وهو يحاول فك طلاسم تشابكها وتربطها. فالاحتكام في البناء الزخرفي لهذا الفرع (الزخرفة النباتية) يكون مبدئياً لهيكل المسار داخل فضاء اللوحة، يحتم على الفنان توزيعاً كميّاً محدوداً للوحدات تحكمه خلفية التشكيل حسب المادة والتقنية، وهي الفراغ الموازن لكتلة البناء الزخرفي (مسار زائد ورقات). وفي الزخارف الهندسية (فن السطرير) نجد أن التوازن الكمي فيها يتضح جلياً من خلال قراءة أسميتها "القراءة الترابلية"، فالتأمل لا يمكن أن يستوعب شكلاً معيناً دون أن يقرأ بجالهِ المحيط، فمثلاً لا يمكن أن نقول هذه نجمة ثمانية إلا إذا حددنا محيطها وهو ثمانية رؤوس متساوية متقاسة، وكذلك العكس. فالأشكال شفافة إذا كان محيطها معتماً، ومعمتة إذا كان محيطها شفافاً، وكأنك في رحلة دائمة بين الظاهر والباطن، بين القبض والبسط. أما وحدات الخط العربي فتختلف مقاييس التوزيع الكمي في تصميماتها حسب أنواع الخطوط المتعددة، لكن عند تنفيذ هذه الوحدات بالتقنيات المعمارية يتجلى التوازن الكمي بما كما في الزخارف النباتية من خلال لعبة التبادل بين الأرضية/الخلفية والتشكيل.

### ب- التوزيع الكيفي

بالإضافة لما ذكر بخصوص التوزيع الكمي في شتى فروع الزخرفة، نجد التوازن الجمالي في التحف الإسلامية من خلال بند توزيع العناصر يرتكز كذلك على مبدأ التوزيع الكيفي من خلال لعبة التوازن

اللوني وتوزيعاته في العناصر، وكذا موازنة متلازمة "النور والظل". فقد حرص الفنان المسلم—و زالت التقاليد الفنية جلية راسخة في هذا الباب— على توزيع الألوان بشكل متوازن مع انعكاسات الظلال. وهذه تركيبة تناغمية توافقية بين الإحساس بنقل الكتلة الزخرفية، سواء كانت ألوانها حارة أو باردة، وكذا الشعور بشفافية الظلال وإعطائها وزناً في التعبير عن الفراغ حسب التقنيات. ويمكن استجلاء ما ذكر بشكل قوي، والإحساس بتوازن الكتلة والفراغ في الأعمال الزخرفية الإسلامية من خلال إيمان التأمل في آية لوحة من لوحات آيات الجمال المعماري في العالم الإسلامي. وهنا يحضري تعبير بلاغي في هذا الباب لعلم من أعلام استقراء مفردات الفن الإسلامي: "تينس بوكهارت" في مقالة له بعنوان "أسس الفن الإسلامي" حيث يقول: "فالمادة الخام—إن جاز التعبير—تم تخفيفها في العمارة الإسلامية وتحولت إلى شفافة بسبب الزخارف النباتية وأشكال المقرنصات التي حفرّت فيها والتي تقدم آلاف من الإمكانات للضوء، مضيئة على الحجر والجص صفة الجواهر الثمينة. فالأزوقة في فناء ما في "قصر الحمراء" على سبيل المثال، أو في مساجد معينة في المغرب العربي، قائمة في صمت تام، وتبدو في الوقت نفسه وكأنها منسوجة من قوارجات من النور، أو أنها نور يتبلور وكان صميم جوهرها ليس حجراً بل هو النور الإلهي، العقل الإلهي المبدع الذي يكمن إبداعه الخفي في كل شيء".

### ٣- الربط بين المساحات الزخرفية والأسطح

لقد مكنت شساعة رقعة التشكيل الزخرفي وكثرة استنباط العناصر، وكذا التركيبات البنوية للزخارف الإسلامية حسب الرقعة الجغرافية للعالم الإسلامي، هذه الكثرة التي يمكن إفراد مكوّناتها على عمر الحضارة الإسلامية وهيكلتها حسب معطيات التاريخ، ولا زال نبضها لم ولن يخفت مادام هذا العالم الإسلامي يحافظ على نظام الصناعة بنظمه، كمكوّن أساسي في الشخصية الإسلامية... أقول مكنت من إعطاء الفنان المسلم إمكانيات كثيرة في تكمية الأسطح والمساحات بما يتلاءم معها من عناصر زخرفية دون نشاز في البلورة الجمالية للقطعة/التحفة، بل الأجل من ذلك أنه كلما كان هنالك تعقيد معين في السطح المراد زخرفته يكون مدعاة وسبباً في خلق فني جديد وإبتكار زخرفي حديث يضاف لفهرس مكتبة الزخارف والتصاميم الإسلامية حتى يكون مرجعاً



لما بعد، تتناقله أيدي الصانع المهرة دون حكر على أحد.  
وكذلك يمكن تطوير تصاميم صنعة ما لتلائم أخرى في تلاحق  
بين التقنيات يظهر جليا في مكونات الزخرفة المعمارية خاصة،  
من أعمال الرخام والخشب، والجص والزليج.. الخ. وما يتمازج  
بين تقنياتها من مكونات زخرفية.

#### ٤- الوحدة في الكل والكل في الوحدة

بالارتباط مع بند التناسب المذكور أعلاه تأتي العلاقة الرياضية  
بين الجزء والجزء، وكذلك الجزء والكل في كيانات الزخارف  
الإسلامية كمبدأ أساسي للتقييم والإحساس الجمالي لدى المتأمل.  
هذه العلاقة أمكن التعبير عنها من خلال خاصية التكرار  
والتماثل في الابتكارات الزخرفية؛ فالفنان المسلم لا يوجد الجملة  
التعبيرية زخرفيا ككيان واحد متكامل، بل هي أولا جوهر فرد  
غير قابل للتقسيم أو التجزئة، وبفعل عمليات التكرار والتماثل  
المحكومة بالعلاقات الرياضية المنطقية، تصبح هذه الوحدة البسيطة  
كيانا أكبر ذا قيمة جمالية أشمل.

هذا التواتر في الوحدات البسيطة والتناسق يدخل المتأمل  
بإيقاع موسيقي متراكب يتجاوز البساطة إلى التعقيد في رحلة  
من الجمال الظاهري (الجمال لأجل الجمال) إلى الإحساس  
بسمو المشاعر وصعودها في معارج الإجلال الجمالي، فيحس  
مقدار وجوده النسبي ضمن دائرة الكون كوحدة ترتبط مع  
الوجود المطلق للخالق تعالى القائل وقوله الحق ﴿هُوَ الْأَوَّلُ  
وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ  
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا  
يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ  
فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٥٠﴾ لَهُ مُلْكُ  
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (الحديد: ٥٠-٥١).

وكانت "نقطة" فـ"خط" ثم "دائرة"، وكأنك تلف عبارات  
التسبيح "سبحان الله" و"الحمد لله" داخل دواخل النفس والروح  
في استظهار للصفات الإلهية يمكن استجلاؤه من خلال التأمل  
العميق المسلح باليقين والفهم الصحيح لعناصر مبادئ التصميم  
الزخرفي في الفنون الإسلامية كركيزة من ركائز الإحساس بجلال  
ديننا الحنيف وعظمته وجماله. ■

(١) كلية الفنون الإسلامية، جامعة البلقاء التطبيقية - السلط / الأردن.

## الربيع الأخضر

يا ربيعنا الأخضر...

يا شذى الخصرة في كل مكان...

أي عاصف غصوب عصف بك؟!

فإذا المثل يعم... والجذب ينتشر...

وذوول مخيف يغشى الجميع...

وصمت كتم يغلق الألسنة...

والمؤمنون بالخصرة يقاومون...

ثم يتابعون... وبعد ذلك يصمتون...

\*\*\*



من شروط تقدم الأمم اجتماع أفرادها على وحدة الهدف  
والقايمة. فلا يمكن توقع تقدم صحيح وسليم في مجتمع  
انقسم أفراده شيعاً وطوائف متناحرة.

\*\*\*

(مجنون ليلى)

فيا ليتني كنت الطبيب المدويا

يقولون ليلى في العراق مريضة

✦ أدب إبراهيم الدياغ ✦

الأم تخاطب ابنتها "ليلى":

يا قمر اللبالي... يا ندى الأسحار... يا رقيقة كالورد...  
يا طاهرة كالثلج... يا نقيّة كالطّل... يا أريجاً سماويّ  
الشذى... يا فراشة شربها الطهر، ورحيقها النور..  
ليلى! يا حبة الفؤاد... من قلبي الوجيع أناديك... ومن  
روحي الملائمة أسألك... ما بك يا ليلى؟... يا لعينيك  
المطفأتين... ويا لسحديك الشاحيين... عاصف حزن  
يبتاعك... وأسى دفين يُلغك... ظلمة غشيتك... وليّل  
أليل طورك...!

ليلى:

أماه... يا أماه... إلى صدرك الحنون ضمتني... ونحت  
جناح أمومتك أويّني... واغسليني وطهريني... وإن شئت  
فاقتليني... ومن عاري خلّصيني... ليلى اليوم أنقاض... شظايا  
إنسان... فتأت لؤلؤة مسحوفة... لب أحمر يلهب كياني...



وما جدوى حوائي وعلاجي... نحن الأطباء نأخذ بأيدي أولئك المرضى الراغبين بالحياة... المشيئين بها... العاصين عليها بالواجد... أما العازفون عنها... والصادون عنها... فكيف نعينهم... ومن أمراضهم تقيلمهم؟...  
 ليلى - اليوم - شلاء الروح... كسيحة الإرادة... جامدة الأحاسيس... مينة المشاعر... وإلى أعماق علمية سحيقة أخذتها لجح اليأس... وألفت بها إلى حلاء نفسي ساكن عديم النبض... إلى أعلن - والألم بمضني - عن إخفاقي في كل ما بذلته من جهد لاستلال "ليلى" من عالم "اللامعنى" الذي دفعها إليه معاناتها الجسدية والنفسية!...

الأم في ولّه خفيف وأنين يُقَطِّع نياط القلب:  
 ماتت ليلى! ليلى ماتت!... فيا أرض اسكني وليلاي فاحتضني... وبا سماء أبواباً تفتحني وروح ليلى استقبلي!...  
 يا عذاري الثقي... حقاً ماتت ليلى... يا صوحيات ليلى أين ليلاي يَبْكُنْ...؟ هل طويت بساط ليلى وإلى الأبد...؟ فلم يُعَدْ ليلي ليلى يَبْكُنْ بساط...؟

وعلى الأرض خَرَّت ساجدة... بمنوة هي القبلاث التي قَبِلَتْ بها الأرض... تاهوت... زَهَرَتْ... سَالَتْ دموعها... ذَرَفَتْ عَبَرَات حَرَى... اخْتَصَتْ نَفْسُهَا... اخْتَلَجَ بَذْنُهَا... شَعَرَتْ وَكَأَنَّ رُوحَ الْعَالَمِ يَبْكِي فِي رُوحِهَا... أَنْبَاءَ وَأَوْلِيَاءَ زَارُوا رُوحَهَا فِي تِلْكَ السَّجْدَةِ الْفَرِيدَةِ... وَيدَ اللَّهِ تَلَفَ الْكُونُ فِي قَلْبِهَا تَضَعُهُ لَكِي يَنْفَقَا بِالْأَلَامِ مَعاً... وَمَأْسَاةِ الْأَرْضِ - كُلِّ الْأَرْضِ - لَمْ تُعَدْ غَيْرَ سَطَرٍ شَاحِبٍ فِي كِتَابِ مَأْسَاةِ الْكَبِيرِ... وَفِي شُرُودِ لَيْلٍ وَتِيهِ نَظَرَاتٍ تَهْتَفُ بِمَنْ حَوْلَهَا:

خَلُّوا سَبِيلِي... دَعُونِي أَضْرِبُ فِي الْأَرْضِ وَالْأَحْقَ قَبْسِي الْمُنِيرِ... وَأَعْلُو وَرَاءَ ضَوْئِي الشَّارِدِ!...

وفي لحظة قدسية تنبته إلى نفسها:  
 اشْكُرِي اللَّهَ - يا امرأة - الذي وهَبَكَ هذا القلب الكبير اللاتق هذا الألم العظيم...

وإذا بوجهها يشرق بانتسامة فيها توسل ورجاء... وبقلبها يرمض فيه نور سكينه ورحمة!... ■

دخان شيطاني أسود يبتاح روحي...  
 أدر كيني يا أمي، أدر كيني... دثري... وعن كل عين أحبيبي... وفي التراب دسني... ليني مث قبل هذا ونسياً منسياً كُنتُ وَدُفِنْتُ... وعن الأنظار توازيت...! من قارة الطريق أخلوني وقيلوني... كتموا فمي... أو جعوني ضرباً... ذئب عَوَى... ثم عَدَا وَسَطاً... وكشّر عن نابٍ ومخلب... ولأغ دم... سفاح حرمة... غَطَّافٍ عَرَضَ... ها أندي بين يديك... كسيرة الجناح... مُحَطَّمَةِ النَّفْسِ... مُلَوِّثَةِ الرُّوحِ... مثلثة الشرف... فافعلي يا ما شئت...! الأثم:

وَبَلِّسْتُ يا ليلى... يَا لَهْوِلَ مَا أَسْمَعُ... وَيَا لَفَجِيعَةٍ مَا أَرَى... تَفَجَّرَ يَا قَلْبِي أَسَى... اخْتَرَقَ يَا فُؤَادِي أَلْمَا... وانزلي يا روحي دماً!...

أَوَاهُ يا ليلى... أَعْلَيْكَ أَنْوَحُ...؟ أُمَ عَلَى نَفْسِي أَنَا نَائِحَةٌ...؟ يَا بَرْوَقَ السَّمَاءِ أَبْرُقِي وَارْعُدِي وَزِمِجِي... وَحَسَدُ لَيْلَى حَمَمِي وَطَهْرِي... وَصَدَأُ الرُّوحِ السَّعْيِ وَاسْفَحِي... وَغَاشِيَاتِ الْعَذَابِ أَحْرِقِي... لَفْ "ليلاي" غَاصِفٌ بِمَجْنُون... غَادِرٌ بِالْإِثْمِ مَشْهُون... يَا أَيُّهَا الْوَيْلُ الْوَيْلُ: يَا مَغْتَالِ السَّمَاتِ... يَا خَائِنَ الضَّحِكَاتِ... يَا بَجْفَ مَاءِ الْحَيَاةِ... شَابَتْ لَيْلَى... صَوَّحَتْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ فِيهَا... غَدَّتْ خَلَاءَ مَهْجُورٍ... وَجَدَعًا مَنُحَوَّرٍ... وَقَلْبًا مَفْطُورًا... وَرُوحًا مَدْحُورًا... وَأَمَلًا مَقْهُورًا!...

رُحْمَاكَ يَا رَبِّ... مَاذَا أَفْعَلُ...؟ وَأَيَّ بَابٍ أَطْرُقُ...؟ وَبِمَنْ أَلْتَجِي وَأَسْتَجِرُّ...؟ عَلَى بُلُوَانَا يَا رَبِّ أَعْتَا... وَصَبْرًا أَلْمَمْنَا... وَخَنَانًا مِنْ لَدُنْكَ أَعْطَانَا... زَكَّانَا... طَهَّرْنَا... وَإِيمَانًا عَظِيمًا أَمَحَّنَا... دَاوِ جِرَاحَاتِنَا... وَعَلَى أَلَمِنَا قَوَّنَا!...  
 يخرج الطبيب من غرفة "ليلى" في عينين طافحتين بالدموع، فتستقبله الأم المفروعة في جانب قصي من جوانب حديقة المنزل.

الطبيب للأثم:  
 "للاك" - سيدتي - فقدت إلى الأبد شهيتها للحياة، أنطفأ حماسها... همدت روحها... فما جدواي إذن...

© كاتب وأديب / العراق.





الذين يجافون الدين ويرفضونه سيسقطون عاجلاً أم آجلاً  
في هوة الاستهانة بالعرض والامة والوطن.

\*\*\*

## وإصلاطاه!

عبد الله دميحي

كل الحرص على أداء صلاتها في أوقاتها.. بينما حفيدها الشاب  
اليافع تعود ألا يقوم للصلاة إلا قبيل انقضاء وقتها معدلاً ذلك  
باستغراق في الدراسة. وثب من مكانه بقل:

- آه.. فات الوقت!..

فترضاً بسرعة ثم وقف إلى الصلاة دون أن يخفف وجهه

ولم يسهو النهار، وزحف الظلام إلى غرفته  
الضيقة المتراعة، وهو متمدد على الأريكة  
يستريح. سمع صوتاً رحيماً من الغرفة المجاورة:

- أعنت الدنيا.. فات الوقت.. صلاة المغرب يا ولدي!..

كانت حنته في غروب عمرها، ورغم ذلك كانت حريصة

ش



وذراعيه.. أتم صلاته على عجل ثم اتكأ على الأريكة وراح يتمتم بالأوراد..

حلّ عليه التعب، فوضع رأسه على ذراعه على طرف الأريكة واستمر في التسبيح، وما لبث أن ران عليه النعاس وملك عينيه..

...

ساحة تعج بالخلّاق.. رؤوس ناظرة، وقلوب واجفة، وأبصار حاشعة، وأصوات صاخبة متداخلة.. لا يدري أحد ماذا يُصنع به وما تكون عاقبته! جال ببصره هنا وهناك ثم أرسل نظراته إلى بعيد فرأى منصة عالية يجلس عليها بضعة نفر في ملابس بيضاء.. وإذا بهتاف يلوّي:

- لمن الملك اليوم.. لله الواحد القهار..

قال في غاية من الدهشة والاستغراب وقلبه يخفق خفقاً:

- يا إلهي، أين أنا؟!..

وإذا بموجة شرية عارمة تأخذه في دوامتها وتجعله يفيق من ذهره.. وإذا بهتاف ينادي من مكان بعيد:

- مراد بن سُمَيَّة..

تلقت بمدة ويسرة ثم قال بصعوبة:

- أأنا!

تفصّد جبينه عرفاً وتلاحقت أنفاسه وشعر بالاختناق..

فأمسكه حارسان عملاقان من ذراعيه وساقاه إلى المنصة..

بدأت رحلة الحساب التي تبدو بلا نهاية.. كلما طُرِح عليه سؤال خاب سعيه ولم يتحقق ما كان يأمله.. تصبّب العرق من جبينه تصبباً، طالت المحكمة واشتد الكرب، وعيناه مركوزتان على الميزان باضطراب وقلق.. ثقل عمله تارة وخفّت تارة أخرى.. أمل الفوز تارة وحابت آماله تارة أخرى.. وأخيراً.. رجحت سيئاته على حسناته، وصدر الحكم:

- خذوه إلى جهنم..

تحول العالم في عينه إلى كتلة من السواد الكالخ.. لا يكاد يصدق ما يسمعه. شعر بإهناك رهيب فأرعى يديه وحدّق بعينين ممرغوتين..

- ماذا! إلى جهنم!! كلاً!..

تذكر صلاته التي كان يؤديها في اللحظات الأخيرة من وقتها.. فاغرورت عيناه وفاضت دموعه حزناً وندماً. قال بحرقّة قلب:

- يا لحماقتي وغباي.. يا لمصيبتي وبلائي!..

أقبل الزبانية عليه.. فأشاح بيده في رعب وأطلق صيححات استرحام خرفت الفضاء. جعل يستغيث بربه، يدعو ويناشده. فما عاد ينطق سوى بكلمتي "الرحمة" و"الصلاة".. راح يلتفت إلى الوراء علّ الله يتداركه برحمته، وعسى صلاته تدركه فتشفع له وتغفده.. ولكن هيهات هيهات..

سحبّه الزبانية إلى جهنم سحباً. وكلما اقترب منها خلش سمعه أصوات العذاب الذي تقشعرّ منه الجلود. التفت وراءه مرة أخرى مستغيثاً بالله راحياً برحمته.. وما إن وصل إلى شفير جهنم حتى صاح وصرخ بكل ما أوتي من قوة:

- أما سعيّت جاهدًا في خدمة ديني مطيعاً لأوامر ربي؟! أما أدّيت دوري في سبيل عقيدتي؟! أما وهبت نفسي لخدمة الإنسانية والرسالة الربانية؟! أما صلّيت؟! وحمك يا رب!..

انتهى كل شيء.. خسّر الدنيا والآخرة.. وأخيراً، دفعه الزبانية إلى النار الحامية.. وبينما كان يتدحرج إلى قعرها وإذا بيد تمسكه وتجذبه إلى الأعلى وتخرجه من بين ألسنة النيران الملتهبة..

- يا إلهي ماذا يجري!!؟!

رفع رأسه وإذا برجل ذي لحية ورداء يضاوون يفيض النور من حوله، يقف أمامه:

- لا تخف!..

حدّق فيه باندھاش وهو يلهث:

- من أنت؟!!

- أنا صلاتك!..

- أنقذتني في آخر لحظة!.. ما الذي أحرّك عني؟ كادت النار تبتلعني!..

هز رأسه وقال باستغراب:

- أما تذكر أنك كنت توخني إلى اللحظات الأخيرة من

وقتي؟..

...

انتفض من غفوته على صوت ندي ربّاني.. إنه أذان العشاء..

رفع رأسه وجبينه يتفصّد عرفاً.. وثب من مكانه وهرع إلى مكان

الوضوء.. ■

(٤) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: نور الدين صولس.

## الطاقة التحويلية من السلب إلى الإيجاب عند الإنسان

✽ أ.د. هارون أوجي ✽

الأحداث وتخط معنوياتهم ويتمردون ويغضبون ويعززون ويتخبطون ويستولي عليهم القلق، أما الذين استطاعوا أن ينظروا إلى الحياة والوقائع من زوايا مختلفة فهم يواجهون تلك الأحداث بأخذ العبرة والصبر والتحمل والشجاعة، ويرون فيها تحدياً لهم أو يعتبرونها وسائل ترفع من شأنهم. وفي الواقع، ترتبط فحوى هذه الأحداث والمعاني بما رسمنا لها نحن من حدود ووضعتنا لها من أطر.

### كل شيء في الكون جميل

هناك جمال حقيقي في كل شيء حتى في الأشياء التي تبدو قبيحة؛ وكل شيء وكل حدث في الكون جميل بذاته أو باعتبار نتائجه. ولئن كانت بعض الأحداث تبدو قبيحة ومعتدة في الظاهر فإنها تضمهر وراء ذلك حكماً عجيبة وجمالاً رائعاً. ومن منا يستطيع أن يذكر لنا مخلوقاً وُجد مصادفةً، خالياً من أي معنى ولا هدف له؟ انظروا إلى الدرة، وعمتوا في الخلية، وتحروا عن الإنسان في جميع أعضائه، وتدبروا في النظام الحيوي الذي نحن فيه، وفي منظومة الشمس والقضاء اللامتناهي. في أي منها توجد المصادفة والعيبية واللاغاية؟ كلنا يدرك أن موسم الشتاء ذا العواصف والثلوج يخلف ربيعاً جميلاً، ولذلك نحاول أن نستشف الجمال الجوهري الذي يكمن في هذا الموسم دون الوقوف عند الوجهة العاكس له. وإذا لم نستطع أن نفعل ذلك، فإن الشتاء يكون فترة مؤلمة بالنسبة إلينا. هل سبق لكم أن رأتم أناساً يستوون الرياح والأمطار؟ هؤلاء يستأثرون من الرياح التي تسوق السحب وتنزل المطر وتشيع كل هذا الجمال... ويمتعضون بسبب قصر أنظارهم



# ي

يمكن تحويل حل الوقائع ذات الصور السلبية إلى وضع إيجابي، أي إلى منافع لنا وللإنسانية عبر تأطيرها من جديد. وحل الذين تركوا بصمات هامة في الفكر والحياة، وكانوا رواد الإنسانية في العالم، هم أناس تعرضوا للصح والابتلاءات طوال حياتهم أو في حقبة منها. ولم تكن تلك الحسن والابتلاءات تحمل في طياتها سوى مزيد من معانٍ. هل من نبي لم يتذوق الأذى ولم يتعرض للصح؟! وهل ثمة من استطاع الإطلال على آفاق عالم جديد دون التعرض للصح والتعجير؟ لقد اعتبر هؤلاء الناس تلك المعوقات، كالمرض والقهر والتعجير وما شابهها سُلماً يرفع من شأنهم ويقرهم من النجاح، كما أنهم لم يتخلوا عن العزم وكانوا على ما أصابهم صابرين. ونحن كبشر، نواجه في الحياة أحداثاً عديدة لا نريدها ولا نستطيعها، مثل التعرض للانتقادات والمرض والظلم والتعذية والسجن وخسارة الأموال. فكثير من الناس يتفعلون إزاء هذه

والنجاح من هذا القبيل ليس حكراً على كالفين، إذ كل من له مبادئ أساسية ودعم إنسان صلبة يستطيع تحويل وجهة نظره للأحداث إلى أمور إيجابية، ويمكنه الوصول إلى مثل هذه النتائج في كل وقت. وهكذا تتوفر للناس بدائل وخيارات أخرى وسبل حل جديدة في أحلك الظروف. ومهما تكن السحب كثيفة في السماء فإن من ورائها شمساً طالعة. وأهم شيء هنا هو التطلع لرؤية تلك الفوائد العظيمة من وراء الأحداث التي تبدو سيئة وكريهة ومعركة للحياة. ورغم وجود سبل عديدة لفهم الأحداث وتقييمها، إلا أننا نميل دائماً إلى تأطيرها وفق فهمنا المسبق لها. وإذا استطعنا تغيير طريقة فهمنا للأحداث فإننا سوف نجد بدائل أكثر في حياتنا.

### النظرة الأولى قد تكون مضلّة

التاريخ مليء بنجاحات كبيرة أعقبت أحداثاً كانت تبدو سيئة في أول الأمر. ومن بينها معاهدة الحديبية التي كانت مسرحاً لصرخة أبي جندل ﷺ الخريئة. وقد عدّبه أبوه أسوأ تعذيب بسبب إسلامه، مما جعله يهرب في أول فرصة من المكان الذي سجن فيه ويرجع إلى الرسول ﷺ، وذلك في وقت كان الرسول ﷺ يصد صياغة اتفاقية صلح مع مثل المشركين سهيل بن عمرو والد أبي جندل.

وكانت الاتفاقية تنص على أن اللاجئ من المدينة إلى مكة لا يُسلم للمسلمين، وفي المقابل فاللاجئ من مكة إلى المدينة يُسلم لمشركي مكة ولو كان مسلماً. وكانت الاتفاقية قد اكتملت صياغتها ولم يتم التوقيع عليها بعد. "هنا رسول الله ﷺ يكتب الكتاب إذ جاءه أبو جندل بن سهيل بن عمرو في الحديد قد انفلت إلى رسول الله ﷺ. وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله ﷺ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع وما تحمل رسول الله ﷺ على نفسه دخل الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون. فلما رأى سهيل أبا جندل، قام إليه فضرب وجهه ثم قال: يا محمد قد لُجّت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: صدقت. فقام إليه فأخذ بتليبيه. فصرخ أبو جندل بأعلى صوته: يا معاشر المسلمين! أتروني إلى أهل الشرك فيفتنونني في ديني؟ فزاد الناس شراً إلى ما بهم. فقال رسول الله ﷺ: يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله ﷻ جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً فأعطيناهم على ذلك وأعطينا عليه عهداً وإننا لن نغدر بهم" (رواه الإمام أحمد في المسند).

لقد وقع هذا الحدث بعد مضي ست سنوات على هجرة

ويسبب ما يلحق بمصالحهم الضيقة من ضرر طفيف دون التفكير في أنهم سيفتقرون إلى الماء لولا تلك الأمطار. وهؤلاء الناس لهم وجهة نظر ضيقة وسلبية، ينظرون إلى الأحداث من منظار أناني حاصرهم ذلك بمصلحتهم الضئيلة.

وقد تؤدي الأحداث التي تبدو حسنة إلى نتائج سيئة، وكذلك الأحداث التي تبدو سيئة قد تؤدي إلى نتائج خيرة. وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٦). قد تتحسر على فوات أمرٍ لفتنا وراءه ولكن بعد مضي مدة تستجد أحداث وتتكشف لنا أن الخير كان في عدم تحقق ما نريد؛ بينما هناك أمور نكره وقوعها في أول وهلة ولكن نحمد الله على وقوعها، لما تنطوي عليه من الخير.

### الطفل الذي يصير خارج المعتاد

إن أحد طرق التأطير والنظر إلى الواقع من زوايا مختلفة، يكمن في إمكانية الكشف عن المعاني الخفية في أعماق الأحداث. قامت مجلة "Baltimore Sun" الأمريكية بنشر مقال كان لافتاً للانتباه، ولذا أعادت مجلة "Reader's Digest" نشره في ما بعد، تحت عنوان "الطفل الذي يصير خارج المعتاد". والطفل المذكور في النص هو "كالفين ستانلي" (Calvin Stanley). وكان كالفين طفلاً كسائر الأطفال يقوم بكل شيء ما عدا الإبصار، فهو يقرء الدراجة ويلعب البيسبول ويذهب إلى المدرسة. والسؤال المطروح هنا: "كيف يستطيع القيام بكل ذلك؟".

تقول المجلة إن سر النجاح في ذلك هو التوجيه الذي تلقاه من الأم، ونظرة الطفل إلى الأحداث وفق هذا الإطار الذي تعلمه؛ إذ لما سأل كالفين أمه عن سبب العمى، أجابه بأنه ولد هكذا، ولا ذنب لأحد في ذلك. ولما سأل: "لماذا أنا بالذات؟" قالت: "لا أعلم لماذا يا كالفين، ولعل هناك حُطّةٌ خاصة بك". ثم أخذت ابناً وأجلسته أمامها وأردفت قائلة: "يا كالفين أنت لا تبصر، وتستعمل يديك بدل عينيك، ولا تنسى أن ليس هناك شيء تعجز القيام به". وحين الابن لما شعر بأنه سوف لن يرى أمه. فقالت له الأم: "يا كالفين إنك تستطيع رؤية وجهي بيديك ومن خلال سمع صوتي. وبذلك تستطيع أن تتحدث الناس عني أكثر من بعض الذين يستعملون عيونهم". ونجح كالفين في مباشرة العالم المرئي بفضل الإيمان والثقة. وبدا يُخطّط في العاشرة من عمره ليكون مزيّناً إعلامياً في المستقبل ويتكر برنامجاً للعميان في يوم من الأيام.

## وجهة النظر في الحياة اليومية

إن من بمعن النظر فيما تعرض له من الأحداث في الماضي ويسعى إلى الكشف عن أسبابها الحقيقية يعثر على نتائج مذهلة، حيث يكتشف أن من وراء تلك الأحداث تنبئها أو إنذاراً أو تحذيراً له. وإذا واجهنا صعوبات تحول بيننا وبين ما نرغب فيه ونصّر عليه، فإن علينا التريث آنذاك للكشف عن نوايانا الحقيقية؛ هل سنظلم الآخرين إذا حصلنا على ذلك الشيء؟ وهل نلتزم العدل في استعمال قدراتنا وإمكانياتنا؟ وهل لنا آمال سيئة؟ هل نحتاج إلى كفاءة أكبر لوظائف أهم؟ وهل هناك نقص في شخصياتنا... هذه الأسئلة وغيرها نستطيع حل المعاني الكامنة في أعماق الأحداث. ولننظر هذا الحدث الذي قد يصادفنا في حياتنا اليومية؛ غضب منكم صاحب العمل فعاتبكم. ماذا ستفعلون؟ إذ بإمكانكم حمل ذلك على وجه إيجابي أو سلبي. وإذا نظرتم إلى هذا الحدث من زاوية سلبية، فإنكم ستشعرون بالحزن والغضب من صاحب العمل وربما يطير نومكم. وتفكيركم السلبي هذا سيولد نتائج سلبية. أما إذا كانت نظرتكم إيجابية فإنكم ستسعون إلى مراجعة وضعكم بالقول: "كان بالإمكان أن يطردني صاحب العمل فوراً، وأكون عاطلاً عن العمل.. وهذا الأمر أحسن من ذلك. وهو يهتم بي. وكل بني آدم خطأ". وبذلك نعلم كيفية الحوار النفسي وأسلوب الخطاب مع الآخرين، وكيفية النظرة إلى الأحداث، وهذا مهم جداً.

وإذا كنا لا نملك فن تأطير الأحداث والنظرة إليها من زوايا مختلفة، فإننا سوف نراها من حيث يراها الآخرون. وهل قطاع الإضهار سوى تأطير لمدى فهم الجمهور للأحداث وإعادة صياغتها من جديد؟ وإذا لم نعلم نحن بتأطير تلك الأحداث بأنفسنا فهل سنرى غير ما يُعلم إلينا؟ يستخدم العاملون في مجال وسائل الإعلام قوة التأطير بشكل جيد. ولنفكر في الوقائع الاجتماعية التي نلتقط معانيها كما نقلها إلينا وسائل الإعلام دون أن ندرك الصورة الحقيقية في جُلها. ومن سيتفطن إلى وجود خداع أو خطة مغرضة عندما يوضع الحدث التري في إطار بشع؟ اللهم إلا إذا كانت لدينا كاتر قوية نستند إليها عند تأطير الأحداث وعند النظر إليها من زوايا مختلفة، وذلك عبر التساؤل مع أنفسنا وعبر التفكير السليم. وأتأكد بمكانة التفطن إلى الوجه الحقيقي لتلك الأحداث. ■

المسلمين من مكة إلى المدينة؛ حيث توجه المسلمون إلى مكة في شوق لرؤيتها وللطواف بالكعبة، ونزلوا مكان يطلق عليه اسم "الحديبية". وكان المشركون لا يريدون بجي المسلمين إلى مكة، وتم الاتصال بينهما عبر إرسال الرسل حتى وقعت اتفاقية صلح الحديبية، فعاد الرسول ﷺ مع أصحابه إلى المدينة.

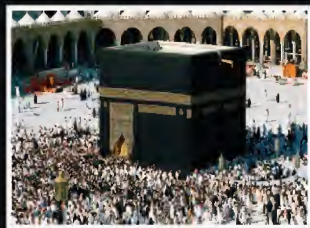
وبدا المسلمون عقب صلح الحديبية مباشرة وعلى رأسهم أبو بصير رضي الله عنه يقرون من مكة طالبين اللجوء إلى جوار الرسول ﷺ. فقدم المدينة أبو بصير (رجل من قريش) وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا: "العهد الذي جعلت لنا! فدفعه رسول الله ﷺ إلى الرجلين. فخرجوا به حتى بلغوا هذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فتمكن أبو بصير من أحدهم فضربه حتى برد، وفر الآخر. فجاء أبو بصير فقال: يا بني الله، قد والله أوفى الله ذمتك قد رددتني إليهم ثم أبحثن الله منهم. قال النبي ﷺ: وثبته مسعر حرب لو كان له أحد! فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم فخرج حتى أتى "سيف البحر". وانفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة. فوالله ما يسمعون بغير خرجت لقريش إلى الشام إلا عرضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده بالله والرحم لما أرسل من أنه فهو آمن. فأرسل النبي ﷺ إليهم فأقر الله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّيَبَكُمْ عَنْهُمْ بِطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ (الفتح: ٢٤).

وكانت تبدو معاهدة الحديبية في أول وهلة وكأنها في غير صالح المسلمين، ولكن مقتضى الاتفاقية التي أكرمت الطرفين بعدم المحاربة طوال عشر سنوات، أرجعت السيوف إلى أعمدائها، فتفرقت فرص الاتصال والاحتكاك بين المسلمين والمشركين. وكانت مناسبة ساعية للانطلاق في فتح القلوب والعقول، حيث تعرّف خلالها مفكر قريش على المسلمين عن قرب، ورأوا صدقهم واستقامتهم وعرفوا جمال الإسلام. كما أن شخصيات كبيرة مثل "خالد بن الوليد" الذي أبى أن يهزم بالسيف و"عمرو بن العاص" الداهية السياسي دخلوا في صف القرآن الجذاب طوع أنفسهم. وخلال سنتين فقط من إبرام الاتفاقية، بلغ معتنق الإسلام أعداداً أكبر من أسلم خلال ما يقارب عشرين سنة، أي منذ بعثة الرسول ﷺ إلى وقت إبرام هذه الاتفاقية. ونلاحظ هنا فطنة نبوية تتجاوز وجهات النظر البشرية. كان الرسول ﷺ قد رأى فوائد مستقبلية عند إبرام هذه الاتفاقية، وانتهر جميع الفرص خطرة تلو أخرى ليبعث رسله إلى أكبر عدد من الناس.

(٦) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: مصطفى سنين.

# روعة الانساب النعدي

أ.د. فريد الأنصاري\*



## رغبة لا رهبة

إن العبادة "رغبة" قبل أن تكون "رهبة"، ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦)؛ أما "الخوف" المذكور مع "الرجاء" في سياق التعبد فله مدلول آخر. ومن هنا كان وصف الإنسان بأنه "عبد"

من أحب الأسماء والصفات الإيمانية إلى الله، ومن أحسنها في تسمية الإنسان، كما ورد في قول الرسول ﷺ: "إن أحب أسمائكم عند الله: عبد الله، وعبد الرحمن" (رواه مسلم)؛ وذلك لأن هذين الاسمين فيهما نسبة العبد إلى اسم الجلالة "الله"، وإلى أعظم صفة لله ﷻ "الرحمن": ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (الإسراء: ١١٠). وفي ذلك ما فيه من شرف الانساب النعدي لله الواحد القهار.

ولهذا المعنى استعمل مصطلح "الانساب الإيماني" أو "النعدي" في الفكر الإسلامي؛ للدلالة على خصوص استناد العبد إلى الله في كل أمره، وما يحده في ذلك من أدواق وجمال. ولعل الأستاذ بدیع الزمان النورسي -رحمه الله- هو أول من استعمله لهذا الوضوح الاصطلاحي، في سياق تحديد الفكر

العبادة، هي عنوان الجمال في الإسلام، وشعار الخبة. وإذا أحب الله الإنسان خاطبه بلفظ "عبد" أو "عبادي". فسيبسه إليه تعالى نسبة

خصوص وإضافة.

والعبودية دالة على خضوع وانقياد، في غير سخط ولا إكراه، ولكنه خضوع المحب الرضي. ومن هنا لم تكن الأعمال لترتقي إلى مستوى العبادة حقيقة إلا إذا أداها العبد برضاه. ولو كانت هذه الأعمال من أركان الإسلام، من صلاة وصيام وزكاة وحج. وقد ذكر العلماء أن العبي إذا امتنع عن أداء الزكاة، فقام السلطان عليه ماله وانتزع منه مفاديرها وصرفها في وجوها، فإن ذلك يسقط عنه حقوق المستحقين، ولا يكلف بإعادة إخراجها بعد، ولكنه لا يسقط عنه حق الله؛ لأن حق الله في العمل إنما هو الشعور بالتعبد. وهو معنى الرضى والمحبة الذي يحاط قلب العامل عند الدخول في عمله. ومن هنا كانت حقيقة العبادة شعورا وحدانيا قبل أن تكون أعمالا مادية، وكانت إحساسا محب من يوجه إليه العمل وهو الله تعالى، لا "ضريبة" يؤديها المرء وهو كاره.



التربوي الإسلامي؛ إذ كُشِفَ النقاب بقوة عن مشاهدته الجميلة، فرسم بذلك لوحة وجدانية خالدة، كلما طالعَتْ أَوَارِهَا تَدَفَّقَتْ بالأسرار. ذلك أن المسلم عند التورسي لم يعد -باعتباره عبداً لله- مجرد اسمٍ عَلِمَ ينادَى: أي: "عبد الله" أو "عبد الرحمن"، وإنما هو صاحب وظيفةٍ مستنبطة من التفكير الخفي، والتدبير المَلِيّ؛ لطبيعة العلاقة بين المضاف والمضاف إليه، في اسم "عبد الله" الذي هو اسم وظيفي -لا عَلَمِي- لكل مسلم حق. إن الإضافة النحوية لها دلالة عظيمة، على مستوى المعاني بالقصد البلاغي والإيماني معاً؛ أعني من حيث إنها تفيد اختصاص المضاف إليه بالمضاف، وتفرده به، على سبيل "الامتلاك". وكذا اختصاص المضاف بالمضاف إليه، على سبيل "الاستناد" و"الانتماء".

### علاقة النسي بالمطلق

وهنا تكمن خطورة المصطلح "الانتساب"؛ لأنه تصوير لعلاقة المطلق بالنسي وما يكتسبه هذا من ذلك. فعلاوة على دقة العلاقة بين مفهومين لا يجمعهما في المنطق إلا معنى التضاد؛ بينما هما هنا يلتقيان في المعنى الإسلامي، في تناسب الحميل المستفاد من علاقة العباد، وما تحمله من ظلال روحية هادئة. علاوة على ذلك كله فإن المصطلح المدرس يصور بأدق ما يكون التصوير الرقي الإنساني، في مدارج الإيمان، حتى يكون أهلاً لمقام العطف الرباني والتضييف الرحمان.

وإني لأحسب أن تجديد التدين في المجتمع الإسلامي، لو أنه سعى هذا المسعى القائم على تحقيق معنى "العبودية"، حيث كانت الإضافة فيها إلى الرحمن نقطة استناد؛ لكان له اليوم شأن آخر؛ إذ يمنح العبد معنى القوة والمنعة والحياة، كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ (الإسراء: ٦٥). فـ"ياء" الضمير (المضاف إليه) الدال على الذات الإلهية، يخص المضاف (عباد) بخصوص "الانتساب" الذي يكتسب منه "العبد" شرف النسبة إلى الملك العظيم رب السموات والأرض. فذلك ما عبر عنه الأستاذ النورسي بـ"الانتساب الإيماني"، كما في قوله مخاطب المؤمنين: "إنك تنتسب بهوية الانتساب الإيماني إلى سلطان عظيم ذي قدرة مطلقة".<sup>(١)</sup>

### الانتمائية

وهذا المعنى فسّر رحمه الله سرّ بدء الأعمال كلها في الإسلام بـ"بسم الله الرحمن الرحيم". يقول: "إن الذي يتحرك ويسكن، ويصبح ويمشي بهذه الكلمة "بسم الله" كمن انخرط في الجندية، يتصرف باسم الدولة، ولا يخاف أحداً، حيث إنه يتكلم باسم

القانون، وباسم الدولة، فينجز الأعمال ويثبت أمام كل شيء".<sup>(٢)</sup> فهذا التشبيه البليغ مقصود للدلالة على الطوعية الوظيفية، للخدمة التعبدية التي بها فقط ينال المسلم شرف الانتساب الإيماني، ذلك أنه -كما يقول رحمه الله- "يرقى إلى مقام الضيف الكريم في هذا الكون، وإلى مقام الموظف المرموق فيه، رغم أنه ضئيل وصغير بل هو معلوم، وذلك بسمّوّه إلى مرتبة خطاب (إِيَّاكَ نَعْبُدُكَ أَي: انتسابه لمالك يوم الدين، ولسلطان الأزل والأبد".<sup>(٣)</sup>

ومن هنا كان الإيمان المُبَلَّغ إلى مقام الانتساب انخراطاً وظيفياً في حركة الجمال، حيث عمل النورسي على تحسيس طلابه بالذوق الانتمائي للإسلام، وتجديد مفهوم الصفة الإسلامية التي أبْلَتْها العادات الاجتماعية، وطمسها الظلمات الإخادية الزاخرة.<sup>(٤)</sup>

ثم إن الناظر في النصوص الشرعية المضمنة لمفهوم "الانتساب" في القرآن الكريم والسنة النبوية، يجد أن الله ﷻ في مناداة الإنسان وتسميته باعتبار "النسبة" ثلاثة أحوال: الأولى أن ينسب إلى جليله وطبيعته الخلقية، فيسمّيه "الإنسان". والثانية أن ينسب إلى أبيه؛ فيسمّيه "ابن آدم" و"بني آدم". والثالثة أن ينسب إليه تعالى فيسمّيه "عبداً"، أو "عبدي" أو "عبادي". ووحدها هذه النسبة الأخيرة تكون في سياق الحق الإلهية العالية للعباد. فلا يذكر الإنسان بوصفه عبداً إلا للدلالة على حب الله له؛ إذ العبودية محبة متبادلة بين الرب الأعلى والمخلوق الأدنى.

### لماذا "الإنسان"؟

وليبيان تفرد وصف الناس بـ"العباد" بمعاني الحق والتفريق، نذكر خلاصة مركزة عن كل من التسمية "بالإنسان"، والمناداة بـ"بني آدم". ففي الأولى يسمي الله الإنسان "إنساناً" في سياق الابتلاء، وتحمله المسؤولية والأمانة. وهي عبارة ذات وقع حيادي على نفس المتلقي والقارئ للقرآن. ولذلك كانت أوضح الآيات في هذا المعنى قول الله ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: ٧٢). فبقيت عبارة "الإنسان" في القرآن محملة بهذه الدلالة، ومشحونة بهذا الإيحاء. إنه إذن صاحب أمانة؛ أمانة تكليف واستخلاف. ولا أمانة إلا وهي تلقي على صاحبها تبعات كبرى، أقل ما فيها المتابعة والمحاسبة.

ومن هنا كان يتحمّل الأمانة ظُلوماً لنفسه، جهولاً بخطورة ما تحمّل وتقلد. فكان الحكم الابتدائي عليه بالخسران، لأنه راهن



هو ذلك المخلوق من طين، المنفوخ فيه من روح رب العالمين. إلا أن الإيحاء هنا لا يركز على جانب الأمانة والمسؤولية والتكليف، بقدر ما يركز على جانب واحد من ذلك كله؛ ظاهره على كل الصفات المضمرة في "الآدمية"، للمشاركة لفظ "الإنسان". وهذا الوصف الظاهر البارز في النداء بـ "بني آدم" هو: ضعف العزيمة والنسيان، وهو مأخوذ من قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ قَنُوسِهِ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (طه: ١١٥). ولذلك كان النداء بـ "بني آدم" دالا على معنى التذكير والتنبيه؛ إذ تعلق بمخلوق شأنه العام هو النسيان وضعف العزيمة. قال تعالى مذكرا ﴿أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ (يس: ٦٠). وهذا العهد هو المذكور في قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٧٢). وهو التنبيه الذي تكرر على سبيل التحذير في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ (الأعراف: ٢٧). إنه تذكير للإنسان بـ "آدميته" ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾.

وكل ما عر فيه بوصف الـ "آدمية" والنسبة إلى الأب الأول، ملحق بهذا المعنى، ولو جاء في سياق التكليف الجزئي، فإنه يحمل في داخله التنبيه إلى خاصية النسيان، وضعف العزيمة، والتحذير منها، كما في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ أَتَقَىٰ أَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الأعراف: ٣٥). إنه تعبير يحمل في دلالاته ذلك الإيحاء الأول بالتذكير بالعهود؛ أن غرمة العزائم الضعيفة، والتنبيه من الغفلة والنسيان أن تحاصره الآدمية.

وقد قيل عبارة "ابن آدم" على معنى "الإنسان" من حيث هو مخلوق على جلبة طينية شسرة، وقد أسلفنا أن بين العبارتين اشتراكا. وعلى هذا جرى كثير من الأحاديث النبوية التي تضمنت هذا التعبير "ابن آدم". وذلك نحو قوله ﷺ: "لو كان لابن آدم واد من مال لابتغى إليه ثانيا؛ ولو كان له واديان لابتغى لهما ثالثا؛ ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب؛ ويتوب الله على من تاب" (مسند طبراني). وقوله ﷺ: "إن ابن آدم إن أصابه حُرٌّ قال: حَسٌّ، وإن أصابه بردٌ قال: حَسٌّ" (رواه الإمام أحمد في المسند) وعبارة "حَسٌّ" اسم فعل مضارع بمعنى: "أضجر".

على شيء أكبر من حجمه؛ فلا ينجو من حيث هو "إنسان" إلا على سبيل الاستثناء ﴿وَالْعَصْرِ﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَفِي خُسْرٍ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالْعَصْرِ﴾ (العصر: ١-٣). وهو استثناء ثقيل يحمل -بعد الإيمان والعمل الصالح- شروطا ثقيلة: التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وتلك هي خلاصة الأمانة. فالإنسان إذن مخلوق مغلول إلى التزامه، مرهق بقضيته ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عَقِبِهِ وَنُخْرِجُهُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (الإسراء: ١٣)، ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (القيامة: ٣٤). بل هو ملزم بالسبر الدائم إلى ربه، سير تتخله المشاق والصعاب؛ لأنه يشق طريقا تخالف ما تشهيه نفسه البشرية، من دعة وملذات دنيوية ورغبات حيوانية؛ ولذلك عبر الله ﷻ عن هذا المعنى بـ "الكسح"، وفي ذلك ما فيه من الإيحاء بمشقة السير، ووعورة الطريق؛ قال سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا فَلَا يَجِدُكَ﴾ (الانشقاق: ٦).

و لم يكن ابتلاء الإنسان مهددا بالخسران، إلا لأنه ارتبط ابتلاؤه هذا بطبيعته الطينية، التي تشده إلى الأرض وإلى علائق التراب، بينما غاية "ابتلائه" أن يرتقي إلى السماء. فأعظم به من امتحان عسير، قال ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نَظْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾ (الإنسان: ٢١). فكانت الآيات مساقاها تشير إلى أنه كلما انقضت عليه طبيعته الطينية، استحباب لأهوائه وشهوته.

ولذلك كانت له في القرآن الكريم -بهذا الاعتبار- صفات وأحوال كلها تدور حول هذا المعنى؛ يقول ﷻ ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْلُوا نِعْمَةً اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم: ٣٤). إنها إذن؛ صفات مرتبطة بالخلق والطبيعة الجلية، ولذا كان التعبير عنها في كثير من الآيات بلفظ "كان" ﷻ للدلالة على الثبات والاستمرار كما في التعبير بها عن صفات الله ﷻ في القرآن، وذلك نحو: ﴿يُذِيعُ الْإِنْسَانُ بِالبَشَرِ دَعَاةً بِالْبَحْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ (الإسراء: ١١).

هذا هو الإنسان! تعبير لا يوحي بالأنس والطمأنينة والسلام وإغا يوحي بالتكليف والحساب!

### التوصيف بالآدمية

وأما الثانية فهي نداء الله عباده بتعبير "بني آدم"، وهو قريب في الدلالة لفظ "الإنسان". بل إن بينهما تداخلا واشتركا؛ لأنه إذ ينسب إلى أبيه آدم عليه السلام يحمل على خصائص "الآدمية". وآدم عليه السلام

وهذان الحديثان إنما هما ترجمة لما ورد في القرآن عن "الإنسان" في مثل قوله تعالى عن المعنى الأول: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۖ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۖ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (العنكبوت: ١٦-١٨).

### التوصيف بالعبودية

ويتفرد النداء الإلهي والتعبير القرآني بوصف الناس بـ "العباد"؛ للدلالة على الرضى والحب والإشفاق وكل المعاني الراجعة إلى صفات الله الرحمن الرحيم الودود الغفور؛ وذلك لما للإنسان بوصفه "عبداً" عند الله من مقام وقرب، وإما العبد: من انتقاد قلبه لربه رغبا ورهبا، وخضعت جوارحه لمولاه طاعة وحباً. وتلك هي الصفة التي جاء الدين لإسباغها على الإنسان؛ فيرقيه إلى أعلى منازل العبودية. وذلك أساس مقتضى شهادة "لا إله إلا الله". فكان الدين كل الدين إنما هو إعطاء صفة "عبد" لهذا المخلوق (الإنسان)، أو كما قال الشاطبي رحمه الله عن وظيفة الدين المقاصدية، إنما هي "إخراج المكلف عن داعية هواه؛ حتى يكون عبداً لله اختياراً، كما هو عبد الله اضطراراً".<sup>(٨)</sup>

ثم إن وصف "عبد" أو "عباد"، ولو ورد مجرداً عن الإضافة، لا معنى له إلا بتقدير الإضافة. وهي النسبة إلى الله سبحانه؛ أي "عبد الله" و "عباد الله". وقد تأتي العبارة صريحة النسبة والإضافة إلى الله، وهذا فرق جوهري هام جداً، في إطلاق ألفاظ: "الإنسان"، و "ابن آدم"، و "عبد الله"؛ إذ ينسب في الأول إلى أصله الخلقى الجبلي، وينسب في الثاني إلى أبيه، وما تحمله هذه النسبة من دلالة على طبيعة "آدم"، بينما يتفرد التعبير الأخير بنسبته إلى "الله"، وكفى بذلك شرفاً ورفعة وجمالا.

ولذلك كان وصف "العبودية" في القرآن لا يرد إلا في سياق البشارة والحب والرضى الإلهي الكريم. وما لم يكن ظاهره من الآيات كذلك فهو ملحق بهذا الأصل في المعنى؛ لأن الكلية الاستقرائية إذا استقرت "كلية" رجع إليها كل جزئي، ولو بدا أنه شاذ عنها، كما هو مقرر في الأصول.<sup>(٩)</sup> وأوضح مثال لذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة: ١٨٦).

إن هذه الآية الكريمة هي عنوان حمية الرب لعباده في القرآن الكريم.. إنما شلال الواردات الخفي، الهامي بالرحمة والمغفرة على قلوب عباده الثائنين، الطارقين باب الله، فقرأ محتاجين؛ ولقد التقط الأستاذ سيد قطب رحمه الله منها لطائف من رُوح الله فقال:

"إضافة العباد إليه، والرد المباشر عليهم منه.. لم يقل: "فقل لهم إن قريب.. إنما تولى بذاته العلية الجواب على عباده بمجرد السؤال: قريب! (...). إنما آية عجيبة.. آية تسكب في قلب المؤمن الندوة الحلوة والود المونس، والرضى المطمئن، والثقة واليقين.. ويعيش منها المؤمن في جناب رضى، وقربى ندية، وملاذ أمين وقرار ممكن".<sup>(١٠)</sup> ذلك أن الطريقة الغالية في السؤال والجواب في القرآن - كما قرره علماء القرآن - أن يجيب الله ﷻ على أسئلة الناس بقوله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾؛ إمعانا في ترسيخ نبوته، ورسالته إلى الناس، معلماً ومرتبياً ورسولاً. وتلك خلاصة "عقيدة الاتباع" في شهادة "أن محمداً رسول الله"، وهو أغلب أسلوب القرآن في هذا الشأن. وذلك نحو قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ (البقرة: ١٨٩)، وقوله ﷻ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ (البقرة: ٢٢٢) ونحو ذلك كثير جداً.<sup>(١١)</sup>

وإنما المهم عندنا هنا أن خلو هذه الآية ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ من لفظ "قُلْ"، يدل على خصوص السؤال الآتي من "العباد"؛ ذلك أنهم هنا يسألون عن "معبودهم" لا عن كيف يعملون في أمور الدين؛ إذ إن قضايا الشريعة والأحكام هي شأن الرسول المُعَلِّم، الذي يُعَلِّمُ ليعلم الناس كيف يعبدون الله. أما هؤلاء فهم الآن يسألون عن الله ذاته سبحانه، لا عن كيف يعبدونه؛ يسألون عن باب معرفته ورضاه؛ إنه سؤال حمية وشرق ووجدان؛ فهو مثل ذلك الذي قال الله تعالى فيه، في الحديث القدسي: "ذلك بيني وبين عبدي.. ولعبدي ما سأل" (رواه مسلم) إذن فالقضية "عبادة"، والعبادة وجدان، لا تصح إلا إذا حلت

من كل شريك، ولو كان نبياً! والدين إنما هو إخلاص القلب لله وحده. وهؤلاء إنما سألوا عن مثل هذا، فلا موضع لـ "قُلْ" هذه؛ في هنا السياق؛ فاعبد ربك تحمده أمانك بلا واسطة، ولا حجاب يحجبه عن قلبك المحب المشوق؛ ﴿أَجِبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.. إنه يبيحك أيها العبد الداعي ربك تضرعا وخفية، وإنما "الدعاء هو العبادة"<sup>(١٢)</sup> كما قال النبي ﷺ.. هكذا على سبيل الاستغراق والشمول. ولا عبادة حقة إلا خالصة لله..

### العبودية تشريف وتحبيب

فغالب الخطاب إذن للعباد - بوصفهم عباداً - تبشير وتحبيب مشوق للقلوب إلى ديار الحبيب. قال ﷻ في سياق التبشير: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ (المرسل: ١٧) وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ



عِبَادَهُ ﴿الشورى: ٢٣﴾. وإنما يتوب الله ﷻ على "العباد"، إذ هم الأحياء الذين يتجاوز الرب الكريم عن سيئاتهم مهما كثرت؛ ما داموا هم "العباد" ﷻ الذين ذلوا لله وخضعوا له. قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ ﴿الشورى: ٢٥﴾.

وتوبة "العبد" لحظة فرح عند الله سبحانه، فرح يليق بجمال وجهه، وجلال سلطانه تعالى. وقد بينه الحديث القدسي بيانا جميلا، فيه من معاني الشوق والقرب والتقرب، والتقريب للتبادل بين العبد وربّه؛ ما يملأ القلب بهجة السرور والاحتفال. إنه جمال الرب الذي يبادل "عبده" -وإنما هو عبده- بجه جباً أكرم وأعظم، ويتقربه تقريبا أشرف وأحلم. فعن أبي هريرة ؓ عن رسول الله ﷺ أنه قال: "قال الله ﷻ: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حيث يذكرني. والله ﷻ أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته في الغلاة" (رواه مسلم).

ومن أروع التعابير القرآنية في هذا السياق، آية تندفغ كلماتها بل حروفها بكوثر احيه الإلهي الفيض جمالاً يغمر قلوب كل من ستمهم الرحمن "عبادي". ولو كانوا حديثي عهد بالضلال البعيد، والتهيب، والرهيب، وشرذوا بعيدا في ظلمات الآثام والذنوب؛ ثم جاؤوا فقراء يظفرون الباب، وما بأيديهم من حسنات إلا هذه التوبة النصوح.. قال ﷻ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣). فعلام يأس "العبد" أو يقنط؟ وما الله تعالى يغفر الذنوب جميعا.. نعم جميعا! آنت الذي جئت تطرق باب الله تائباً؟ إذن، أنت آمن إن شاء الله؛ لا تخفك أهوال الذنوب التي تجرّها وراءك، ما دمت قد جئت في الوقت المناسب.. ودخلت إلى حضرة الرحمة الإلهية من باب الانتساب إلى الله "عبد". نعم، إن "العباد" -وهم عباد السلام- ينعمون عند الله بالأمن والطمأنينة والسلام، سكونية تملأ الوجدان شوقاً إلى لقاء الله. قال ﷻ: ﴿يَا عِبَادَ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (الأنعام: ٦٨). إنهم الآمنون المحييون بمجواره الحصين في الدنيا والآخرة ﴿يُنِيسُ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ (الرعد: ٣١).. بل؛ وإن من كفاه الله حماية وحفظ لهُو الآمن حقاً؛ فما له وللخوف أو القلق والضيق؟ ولذلك فقد تودع إبليس اللعين أن يضل الناس، ويتخذ منهم نصيباً مفروصاً، فقال له الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِيَ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ (الإسراء: ٦٥).

فلك الحمد إلهي.. لك الحمد؛ إذ أكرمت "عبادك" بالحفظ الجليل، والستر الجميل...

وإن للستر جمال القرب، والتناجي الودود مع الرب الكريم. أخبر النبي المصطفى ﷺ في الحديث القدسي، محدثاً عن تجلي الرحمن لعبده يوم القيامة، تجلياً يليق بكماله.. كان ذلك في حديث النجوى، وما أدراك ما النجوى! فعن صفوان بن مُحرز قال: قال رجل لابن عمر: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: سمعته يقول: يُدْنِي الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ ﷻ، حتى يضع عليه كَنَفَهُ<sup>(١)</sup> فيقرره بذنوبه فيقول: هل تعرف؟ فيقول: أَيْ رَبِّ أَعْرِف. قال: فإن قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أعفركا لك اليوم، فَيُعْطَى صَفِيحَةً حَسَنَةً. وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم! ﴿سفع عليهم. وَيُؤْتَى... وما أفضل من أن يكون المرء مشمولاً بوصف "عباد الله" و"عباد الرحمن"؟! ألا إنها أوصاف المحيين في الدنيا وفي الجنة معاً! فهم هنا يسلكون إلى الله مسالك عباد الرحمن، خُشْعاً لله، حلماء، كرماء.. يَسْرُورُونَ بالليل ويسربون بالنهار، مع قافلة العباد، على طريق الحضرة والنور، على أثر الأنبياء الأوصياء، بعيداً عن مستنقعات الجهل بالله، والخوض في دحان الخرائق المشتعلة بأسواق الفساد: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ ﷻ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ (الفرقان: ٦٣-٦٤).. إلى آخر السورة. وللايات بعدها انسياب الماء المشع برضاء الله، وعطائه العتيق من كمالات الصفات. كمالات تعري القلب بمواجيد ذات أشواق، وكووس ذات أدواق. لا يغنيك بذوقها حق الذوق كآسا كآسا غير المصحف الكريم.

قال الحبيب المصطفى ﷺ ناثراً من كلام الله العلي سني قدسيا: "قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبيدي ما سأل.. فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال الله تعالى: حمدي عبدي.. وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، قال الله تعالى: أثنى عليّ عبدي.. وإذا قال: ﴿يَا أَلَهَامُ لَكَ الْحَمْدُ﴾، قال الله تعالى: مجدي عبدي. فإذا قال: ﴿يَا كَرِيمُ﴾، قال الله تعالى: هذا بيني وبين عبدي، ولعبيدي ما سأل. فإذا قال: ﴿أَعِزَّنَا لِلْمُسْتَقِيمِ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، قال: هذا لعبدي، ولعبيدي ما سأل" (رواه مسلم).

فأي كرم هذا، وأي نعماء؟ وأي فيض هذا وأي عطاء؟

فمن يأتي أن يكون "عبداً" لله إذن؛ إلا عدم النوق متخشب الإحساس؟! "هذا بيني وبين عدي.. ولعدي ما سأل" أسمع؛ إنه يخاطبك: "عبدى!" فأتما هناك يصل "بينكما" ود الشاخي: "بيني وبين عدي!" إنه ود خفي، إنه بينكما.. تدنو أنت وحدك، هناك في حمراب التعبد السن، الموصول بورادات السماء؛ حيث التحلي الجليل يفيض عليك بالنجوى، حملاً وسلاماً... فهنيئاً لك يا عبد! وما سعى الله أنبياء الأصفياء -وهم خير العباد- إلا "عباداً"..  
فذلك كمال رضاه تعالى عليهم: شرف نستهم إليه سبحانه. وما كان منه ذلك إلا في سياق الرضى الواسع البديع. قال تعالى في شأن محمد ﷺ سيد العابدين: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْمَكِّيِّ﴾ (الإسراء: ١)، وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ (الكهف: ١)، وكذا قوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ (النجم: ١٠).  
وقد مدح الله الأنبياء السابقين فوصفهم بصفة العبودية له. قال سبحانه: ﴿وَإِذْ كَرَّمْنَا نَبِيَّكَ إِسْحَاقَ وَيُحْيَىٰ﴾ (١٧).  
بل إن العبودية كانت -قبل ذلك وبعده- من أرقى مقامات الملائكة؛ قال تعالى يُجْهَلُ الْكُفَّارُ الْمُتَنَبِّئِينَ عَلَى اللَّهِ: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاءً﴾ (الزخرف: ١٩).

## الأمن والسلام لعباد الله

"العباد" إذن؛ هم المؤمنون المسلمون بإذن الله.. هم الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وما ذكر الخوف في شأنهم إلا لنكتة خاصة، كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ (الزمر: ١٦). فمثل هذا إنما هو تخويف محبة لا تخويف بعض وغضب.. والله ﷻ أرحم بعباده من الأم؛ إذ تخنو بتدبيره الثر على رضيعها. إن الله ﷻ قد قرر مبدأ ثابتاً قبل ذلك، فقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (البقرة: ٢٠٧).

ويا لروعة التعبير القرآن! إذ يفصل هذا المعنى الذي هو واقع منه تعالى بقصد "التخويف" التربوي، إذ يكشف الله تعالى فيه عن جمال من سر الحب الإلهي عجيبي.. جمال يضرب بأنواره الباهرة في أعماق الوجدان؛ فيبهز القلوب، ويخطف العواطف! قال سبحانه ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (يس: ٣٠). يا سلام! نعم، صحيح أن الله تعالى -كما تنقل تفاسير السلف- لا يتحسر! وإنما يصور سبحانه بأسلوب جذاب أخذ ما يقع بقلب العبد المؤمن من أسى وحسرة؛ إذ

يشاهد مآل الكفار ومصيرهم اليأس، وما فرطوا فيه من التعميم المقيم والخير العميم، مما لا يملك معه الإنسان إلا الحسرة والأسى.<sup>(١٥)</sup> يبد أن العبارة دالة أيضاً على منتهى الرحمة في خطاب الله لعباده ولو كانوا كافرين. وأي قلب لا يتحسر إذ يدرك هذه الحقيقة الرهيبة؟! هؤلاء الناس الذين يتسابقون سراعاً نحو هاوية الجحيم، يلقون بأنفسهم في غياها تباعا. ﴿يَا حَسْرَةً﴾ والتعبير بـ"الحسرة" لا يكون إلا في سياق الأسى على فوت محبوب، أو ضياع مرغوب. ولذلك فهو دال على الحية. والله ﷻ -تزره عن التحسر- إذ ذكر ذلك مصوراً عاطفة إيمانية بشرية، سعى أولئك الكفار "عباداً"؛ لأن السياق سياق محبة وإشفاق. والأصل في الأمر الكون أن الله تعالى يحب الناس، كل الناس. وما كان يرضى لهم ما وقعوا فيه من كفر وضلال، فهو الذي قال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ (الزمر: ٧٠).. ولكن هم ظلموا أنفسهم إذ أغضبوا الله ﷻ ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران: ١٨٢).. أفلا يستوجب الأمر إذن أن تصرخ: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾!.. كلمات في قمة البلاغة ودقة التعبير.. كلمات ذات إجماع لطيف لا يكشف عن سره إلا ذووقا. ■

١٥ جامعة مولاي إسماعيل، ورئيس المجلس العلمي بـ"مكاس" / المغرب.

### المواشير

- (١) المعجمات لسعيد النورسي، ص ٣٨٨؛ وانظر: الشعاعات لسعيد النورسي، ص ١٣.
- (٢) الكلمات لسعيد النورسي، ص ٦٧-٧٠؛ وانظر: المعجمات لسعيد النورسي، ص ٢٧٨.
- (٣) الكلمات لسعيد النورسي، ٤٥/١.
- (٤) نقل عن كتابنا "مفاتيح البور" بصرف بسير، ص ٢٧٩-٢٨٣.
- (٥) وانظر: النحل: ٤٤؛ المعارج: ١٩-٢١.
- (٦) وانظر: الإسراء: ٦٧، ١٠٠.
- (٧) ونظر: الفجر: ١٩-٢٠؛ المعارج: ١٩-٢١.
- (٨) الموافقات للشاشي، ١٦٨/٢.
- (٩) الموافقات للشاشي، ٥٣/٣.
- (١٠) في ظلال القرآن للسيد قطب، ١٧٣/١.
- (١١) وانظر: البقرة: ٢١٥، ٢١٧، ٢١٩، ٢٢٠؛ الأنفال: ٤١؛ الإسراء: ٨٥؛ الأحزاب: ٦٣.
- (١٢) رواء الإمام أحمد في المسند، وابن أبي شيبه، والبخاري في الأدب المفرد.
- (١٣) قال ابن حجر: "كفف": فنع الكاف والنون، بعدها فاء، أي جانيه، والكف أيضاً: الشتر، وهو المراد هنا، والأول مجاز في حق الله تعالى، كما يقال: فلان في كف فلان؛ أي في جانبته وكلائته. "فتح الباري لابن حجر، ٨٨/١٠، ٤٨٨.
- (١٤) وانظر: سورة ص: ٤٥، ٣٠، ١٧، ٤١، ٤٤؛ الإسراء: ٣.
- (١٥) ونقل أيضاً: هو بيان ما يقع بقلوب الناس من حسرة وتذممة؛ مما فرطوا في جنب الله؛ فكسروا وكذبوا؛ رواء الطبري عن مجاهد وقادة، ونحوه عن ابن عباس؛ جامع البيان: ٢٣/٢٣٠. وهذا المعنى وذلك كلامها وأراد عند الطبري والقرطبي وابن كثير في تفسير الآية من سورة يس.





# إليك أشكو

الاستاذ الملا بدر الدين التلوي

إليك أشكو رسول الله أزمانى  
 أنت المرجى لكل العالمين وأنـ  
 إذ أنت - لا ريب - أعلى الخلق منزلة  
 لذاك كنت ختام الأنبياء وكا  
 وخصك الله بالقرآن معجزة  
 حتى رأيته بالعيتين جمل عن الله  
 يا رحمة الله من من نوره شرقت  
 من لي سواكم مولى آخذاً بيدي  
 ومن لي غيركم في الناس يُقَدِّن  
 وقد أحاط بي الضرر وضيقت بما  
 فجئت بفضلك يا خير الأنام وأد  
 واجعل حبيبك الحمساء حاميتي  
 فإنني لك ذو قربى لأنسي من  
 حاشاك أن تحرم الراجي لفضلك لا  
 أنا غيبك حتى الموت يا سندي  
 إن كنت غير حري بدخول حما  
 لا يحصى من جا ثقلاً بالكبانر حتى  
 صلى عليك إله العالمين صلا  
 مع ألك الغر والأصحاب قاطبة

وأتجي بك في كل الملمات  
 ست المتجاهلهم في كل حالات  
 عند الإله وأحظاهم لثبات  
 ن دينك الحق نساخ الديانات  
 عظمى وأسرى بك فوق السماوات  
 شبيهه مع كبرى آيات جليات  
 شمس الوجود على كل البريات  
 عطفاً ويدفع ما بي من بليات  
 من المزلات يهدي للممترات  
 قد مسني اليوم ذرعا من مصبات  
 ركني أيا خير من يؤجى لشدات  
 يا من أحق بأن يحمي الحقيقات  
 أولاد عمك عباس السالات  
 سيما إذا كان من ذوي القربات  
 في باب كهفك قطمير الرجاءات  
 ك أنت أخرى بأن تعفو زلاتي  
 الكفر أنعمته إذ تاب خلعات  
 ذ لا تعد ولا تحصي بعدات  
 إليك أشكو رسول الله أزمانى

(\*) من كبار العلماء والمؤمنين بتركيا.

## واحة القراء



جزاكم الله خيرا على هذا الجهد.. عندما يقرأ الإنسان المفتوح  
قيسات من كلمات الشيخ المفكر فتح الله كولن، يطمئن بأن  
العالم الإسلامي بخير وأن المستقبل لهذا الدين..

محمد / مصر

السلام عليكم وبعد،

لقد تشرفت بالتعرف على مجلتكم.. وأمل أن يكون بيني وبينكم  
تواصل في القريب العاجل.. ووفقكم الله لكل خير..

أحويكم.. عبدالله بن علي السعد / السعودية

شكرا كثيرا على هذا الموقع الجميل، ولكم منا أحرر التحيات  
على هذه الجهود المباركة إن شاء الله... وبارك الله فيكم والف  
تحية لكم ولمشروعكم هذا....

الصحفي راند / فلسطين

بعد التحية والاحترام،

وبعد، دفقات الإيمان والعلم والثقافة والحضارة التي وجدناها  
في مجلتكم الغراء المتميزة والمتفردة في الطرح والقضايا لتصل  
بالإنسان بمشروعها الحضاري المنشود وعيا وقيما أود معرفة  
طريقة الاشتراك بالمجلة ومبلغ الاشتراك وطريقة الدفع، أو مراكز  
البيع في الأمرات العربية

د. سالم يسييس / الإمارات العربية المتحدة رأس الخيمة

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

شكر الله لكم مساعيكم الحميدة في تنوير فكر المسلمين بما تقدمونه  
من مواضيع متميزة في مجلتكم "حراء". أسأل الله أن يوفقكم لما فيه  
خير الإسلام والمسلمين، ويسدد خطاكم، فهو نعم المعين والناصر.  
محمد درغازي / المغرب

السلام عليكم،

دعتم في خدمة العلم والمعرفة.. وبعد اطلاعي على مجلتكم المحترمة،  
ارتأيت أن لا أتأخر في مراسلتكم لأشكركم على الجهود..

د. بلهوارى فاطمة / الجزائر

الحب في الله نعمة لا يقدرها  
إلا من تحللت أعماقه، وتعششت  
سويداء فؤاده، تنعمت سرائره بأزاهير  
روحانية مقدسة، يتلمس رحمتها بجود ما تجود  
به قريته، وهو في نشوة ذلك الحب يرجو من الله تعالى أن  
يوسعه على أعضاء هذه المجلة وكاتبها من مخلصي هذه الأمة.  
ناجي شنوف / الجزائر

لقد اطلعت على موقع المجلة على الانترنت فأعجيتني  
ما تحتويه من مواضيع مهمة، فلكم جزيل الشكر.  
منصور صالح بن معمر / الجزائر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

وبعد، أتابع بكل التقدير والإعزاز أعداد إصداركم الجاد  
التميز، والتي هي بحق منارة إسلامية ثقافية فكرية لا غنى  
عنها للباحث أو للقارئ، حيث أنها تمثل إجماعاً منهج الاعتدال  
والوسطية الذي يمثل فكرنا الإسلامي خير تمثيل، فمعكم الله  
تعالى، وإلى الأمام دائماً من أجل إثراء الفكر الإسلامي المستنير.  
يسري عبد الغني عبد الله / مصر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

أشكر السادة القائمين على العمل بهذه المجلة العلمية الجميلة التي  
تفيد جميع شباب المسلمين، وأشرككم شكرا جزيلا...

شريف / مصر

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته،

اطلعت على أعداد مجلة حراء، وانتابني فرح شديد لمستواها الراقى  
سواء من حيث الموضوعات أو الشكل، ولسعيها التواصل مع  
كافة أفراد الأمة، فجزاكم الله خيرا وأنا بكم.

د. سعد الناصر (أم سلمى) / المغرب



# حراء

www.hiraamagazine.com

## دعوة ودعاء

دعوة لا بردفيا دعاء لا تحصب ولا ترهب

لما لم نعط: ادعوني استجب لكم.. وجودنا أفقرت روحا، وأجذب قلبا...  
وسقطت دعوتنا في فيخ الدنيا... فكم من مردهم دعاؤنا جوائح السماء.. فطفت أنوارنا،  
وقاطلت علينا لظفا ورحمة ووداد.. فأذا رأينا ربيع مزهر... وفكرنا عطاء مبسر...  
وأفاننا عطر بصوع... ودعوتنا دفة للمفروق... وفرج للمكروب، وعزاء للمحزون...  
فما عابت دعوة لا تفك تنزع بحركة وبطرفة... وتبلغ الله من قلب سليم وروح مثير...

ISSN 1306-1879



9 771306 187009 08  
www.hiraamagazine.com